التأثير الاجتماعى والسياسى
فى شعر القرن الرابع الهجرى

دكتور

إبراهيم سعد محمود قنديل

كلية التربية - جامعة المنصورة

الباب الأول

التأثير الاجتماعى

التأثير الاجتماعى

المــؤرّخ لعصـــر من العصور يجب أن يضع نصب عينيه الحياة الاجتماعية لذلك العصر وملامحها وبخاصة مؤرّخو الأدب والمتحدثون عنه .

ذلك لأن الحياة الاجتماعية فى أى عصر من العصور لها تأثيرها البالغ والخطير فى تحول كل شئ عما كان عليه من قبل .

والمــتحدث عــن العصر العباسى كله ، والمؤرّخ للأدب فى ذلك العصـــر بعامة وفى القرن الرابع الهجرى بخاصة يجد أن هناك عناصر مــتعددة لعبت دورها فى تسيير أمور الأمة العربية إلى جانب العنصر العربى ، من هذه العناصر المتعددة عنصر الفرس وعنصر الأتراك .

ولقد جاء الأتراك متأخرين عن الفرس والذى اتجه إليهم المعتصم ويــرى الأســتاذ أحمــد أمين أن هناك أسبابا متعددة هى التى شجعت المعتصــم على استقدامه الأتراك والاستكثار منهم والاستناد إليهم يقول الأســتاذ أحمــد أمين : " وسبب اتجاه المعتصم إلى الأتراك يرجع إلى أمور:

١- أن أهم عنصر فى الجند كانوا إلى عهد المعتصم هم الخراسانيين وهــم فرس من خراسان وكانوا عماد الدولة العباسية نحو قرن من عهد إنشاء الدولة إلى المعتصم ، كما كانوا حرّاس الخلفاء ، وكان بجانب هؤلاء الجند من الفرس جنود من العرب من مُضَر

واليمـــن وربيعة ولكن هؤلاء العرب كانوا أقل شأنا وأقل حظوة وأقل عددا من الفرس .

ضـــعفت ثقـــة الخـــلفاء بالعـــرب عـــلى مر الأيام إذ رأوهم لايتحمســـون للقتال لهم تحمس الفرس ، وقد تعرض رجل للمأمون بالشـــام وقال له : " يا أمير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت لعجـــم أهـــل خراسان " ولكن المعتصم بدأ أيضا يشعر بضعف ثقته بالفـــرس وذلك أن كثيرا من الجند لما مات المأمون كان هواهم مع ابـــنه العـــباس لأن أم المأمون فارسية فدعتهم عصبيتهم للمأمون – نصف الفارسى – أن يتعصبوا لابنه العباس أيضا .

٢- وسبب آخر لاستدعاء المعتصم للترك وهو أن أم المعتصم أصلها مـــن هذه الأصقاع التركية فقد كانت من السُّغد واسمها " ماردة " وكـــان فى طـــباعه كـــثير مـــن طباع هؤلاء الأتراك من القوة والشجاعة والاعتداد بقوة الجسم"[١]

ومّمـــا يؤيـــد ذلـــك الرأى للأستاذ أحمد أمين ويدل على أنه كان فى طـــباع المعتصـــم كثير من طباع الأتراك ماجاء فى تاريخ الخلفاء للسيوطى:" وقال ابن أبى دؤاد : كان المعتصم يخرج ساعده إلىّ ويقول: يـــا أبا عبد الله عَضّ ساعدى بأكثر قوتك فأمتنع فيقول : إنه لا يضرنى فأروم ذلك فإذا هو لا تعمل فيه الأسنة فضلا عن الأسنان "

---

١ – ظهر الإسلام لأحمد أمين مكتبة النهضة المصرية ، ط الطبعة السادسة ، ص ٣– ٤.

وقال نفطويه : وكان من أشد الناس بطشا ، كان يجعل زند الرجل بين إصبعيه فيكسره"[١]

وبدخـــول الأتـــراك إلى الدولة الإسلامية دخل فى نزاع العصبية عنصـــر ثـــالث فقد كان النزاع من قبل بين العرب والفرس فأصبح بين العـــرب والفـــرس والأتراك ، ومن المسلّم به أنه كلما ازدادت العناصر داخـــل البلاد ازداد الفساد وشاعت الفوضى وانقسم الناس بين مؤيد لهذا ومعـــارض لذاك ، فما بالنا إذا كان الخليفة نفسه هو أول مؤيد للأتراك وأول مســـتقدم لذلـــك العنصر وقد كثر الأتراك فى عهد المعتصم كثرة بالغـــة يقـــول السيوطى عن المعتصم : " هو أول خليفة أدخل الأتراك الديـــوان ، وكـــان يتشبه بملوك الأعاجم ويمشى مشيهم وبلغت غلمانه الأتراك بضعة عشر ألفا"[٢]

وقد كان فى الأتراك جفاوة وبداوة وسوء معاملة للشعب وقد كانوا يختـــلفون عن الفرس الذين عهدهم العرب من قبل ، يختلفون عنهم فى أخلاقهم ومعاملاتهم .

يقـــول د . إبراهيم أبو الخشب مقارنا بين الفرس والأتراك : " إلا أن هـــناك شـــيئا يجب ألا ينساه المؤرخ للفرس ذلك هو أنهم قوم حذقوا السياســـة ومهروا فى خدمة الملوك وظهرت فيهم بشكل واضح غريزة

---

١ - تاريخ الخلفاء للإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن بكر السيوطى ، ت٩١١هـ - المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، دار مصر للطباعة - الطبعة الرابعة ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩ م ، ص ٣٣٤ .

٢ - المصدر السابق ، ص ٣٣٥.

التطلع للكمال أو الرغبة فى محاربة مركّب النقص لذلك كانوا على الرغم من نواياهم التى يبيتونها وميولهم التى يضمرونها يؤدون أعمالهم أحسن أداء ويقومون بوظائفهم أفضل قيام ويبدو الرجل منهم فى كل أحواله فى شكل المواطن الصالح فلم يُحس الناس منهم بالتمييز العنصرى الذى ينفرهم منهم اللهم إلا هذا النفر القليل من طلاب الوظائف وأرباب الأعمال وأما ما عدا ذلك من دهماء الشعب فإنهم كانوا يضمرون لهم الحب والاحترام ، ولكن هؤلاء الأتراك كانوا على النقيض من ذلك كله على طول الخط ، لم يكن فيهم طموح للعلم ولا رغبة فى المعرفة ، ولا حب فى الثقافة ولا نزوع إلى الاندماج فى غمار عامة الناس ولا ميل إلى خدمة الشعب أو عمل على رفعة الدولة وكل تفكيرهم كان منحصرا فى ذلك السلطان الممنوح لهم من صاحب السلطان وذلك النفوذ الذى أحسُّوا به وتلك الدنيا العريضة التى رأوها تدين لهم فى غفلة من الزمن وهذا البطش الأهوج الذى أصبح مستوليا على رؤوسهم يلعب بها لعب الصبى بالكرة ، ولكم يكن وراء هذا الجهل والطّيش والسلطان والنفوذ والفراغ والبطالة إلا ما يكون من جنود الاحتلال فى المستعمرات المختلفة والبلاد المغلوبة أو الشعوب الضعيفة عندما تنطلق للهتك والفتك والسطو والنهب والاغتصاب والسرقة من غير قانون رادع ولا قضاء عادل ولا سلطان مرعى أو حكومة مانعة أو بأس مرهوب والنتيجة المنطقية لهذه المقدمات ليست سوى إشاعة الذعر والشكوى والاضطراب " (١)

---

١ - تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى الثانى ، د . إبراهيم على أبو الخشب الهيئة المصرية العامة للكتاب ، فرع الاسكندرية ، ص ١٢ ، ١٣ .

ومما يؤيد ذلك الرأى الذى ذهب إليه د . أبو الخشب ما جاء فى تاريخ الخلفاء للسيوطى من : " أنه – يعنى المعتصم – اعتنى باقتناء الترك فبعث إلى "سمرقند" و"فرغانة" والنواحى فى شرائهم وبذل فيهم الأموال وألبسهم أنواع الديباج ومناطق الذّهب فكانوا يطردون خيلهم فى بغداد ويؤذون الناس وضاقت بهم البلد فاجتمع إليه أهل بغداد وقالوا : " إن لم تخرج عنا بجنودك حاربناك . قال : وكيف تحاربوننى ؟ قالوا : بسهام الأسحار . قال : لا طاقة لى بذلك فكان ذلك سبب بنائه سُرّ من رأى وتحوله إليها"[١]

وهكذا كان الأتراك عنصر فساد ، وأسى وفوضى من يوم أن استقدمهم المعتصم وطوال مكثهم فى البلاد حيث أحكموا قبضتهم على كل شئ ودسُّوا أنوفهم فى كل أمور الدولة واصطبغت الحياة بصبغتهم ، يقول الأستاذ / أحمد أمين : " وأخذ التاريخ الإسلامى يصطبغ بالصبغة التركية وبعد أن كانت الأحداث تتصل بإعدام الفرس كأبى سلمة الخراسانى والبرامكة والحسن بن سهل والفضل بن سهل ، وعبد الله بن طاهر وأمثالهم ظهر التاريخ مرتبطة أحداثه بأشناس وإيتاخ وبغا الكبير وبغا الصغير وابن طولون وأمثالهم من الأتراك ، إذ كانوا القابضين على زمام الدولة والمتصرفين فى شؤونها"[٢]

وإن كان هناك من سبب لهذا النفوذ اللامحدود للأتراك فإنما يكون ذلك السبب تشجيع الخلفاء المستمر لهم مما زاد من نفوذهم ، ولقد رأينا

١ –تاريخ الخلفاء للسيوطى ، ص ٣٣٥ ، ٣٣٦ .

٢ –ظهر الإسلام ، ط ص ٦

ذلك التشجيع من المعتصم أول مستقدم للأتراك وأول من بنى لهم مدينة، ويـــزداد ذلــك التشجيع بعد المعتصم فنرى ابنه الواثق والذى خلف أباه بعهـد منه سنة سبع وعشرين ومائتين – نراه – يشجع الأتراك إلى حد اســتخلافهم ، ويقــول السيوطى : " وفى سنة ثمانى وعشرين (يعنى ومائتين) استخلف الواثق على السلطنة أشناس التركى وألبسه وشاحين وجوهــرين وتاجــا مجوهرا وأظن أنه أول خليفة استخلف سلطانا فإن الترك إنما كثروا فى أيام أبيه"[١]

وولى الخلافــة بعـد الواثــق أخوه المتوكل على الله سنة اثنتين وثلاثيــن ومائــتين فأظهر الميل إلى السنة ونصر أهلها ورفع المحنة ، وكتب بذلك إلى الآفاق "[٢]

ويقول د . حسن ابراهيم : " وكان لعمله هذا أثر حسن فى نفوس المسلمين فأولوه احترامهم"[٣]

ولكن ما يؤخذ على المتوكل عنفه البالغ تجاه العلويين إذ هدم قبر الحسين بن على فى عهده وبأمر منه يقول السيوطى : " وفى سنة ست وثلاثين (يعنى ومائتين) أمر المتوكل بهدم قبر الحسين وهدم ما حوله

---

١ – تاريخ الخلفاء للسيوطى ، ص ٣٤٠ .

٢ –المصدر السابق ، ص ٣٤٦ .

٣–تــاريخ الإســلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، د . حسن ابراهيم ، الطبعة السابعة ، ط٣ القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٤.

مـــن الـــدُور وأن يعمـــل مزارع ومنع الناس من زيارته وخرب وبقى صـــحراء ، وكـــان المتوكل معروفا بالتعصب فتألم المسلمون من ذلك وكتب أهل بغداد شتمه على الحيطان والمساجد وهجاه الشعراء ومما قيل فى ذلك :

بـــالله إن كـــانت أميـــة قـــد أتت	قـــتل ابن بنت نبيها مظلوما
فـــلقد أتـــاه بـــنو أبيـــه بمـــثله	هـــذا لعمـــرى قبره مهدوما
أسفوا على أن لا يكونوا شاركوا	فى قـــتله فتتـــبعوه رميما[١]

وقد كثرت فى عهد المتوكل المجاعات وحل الجدب فى البلاد إثر عواصف شديدة ورياح عنيفة يقول السيوطى : " ومن عجائب هذه السنة – يقصـــد ســـنة أربع وثلاثين ومائتين – أنه هبت رياح بالعراق شديدة الســـموم ولـــم يعهد مثلها أحرقت زرع الكوفة والبصرة وبغداد وقتلت المســـافرين ودامـــت خمســـين يوما واتصلت بهمذان وأحرقت الزرع والمواشى واتصلت "بالموصل" و"سنجار" ومنعت الناس من المعاش فى الأسواق ومن المشى فى الطرقات ....الخ "[٢]

ولا يخـــفى أثر ذلك كله فى الحياة الاجتماعية إذ نضبت الحياة فى البلاد وأجدبت وأحرق الزرع وأهلك الضرع وعاش الناس محنا متتالية الـــلهم إلا هذه الفئة القليلة من الأتراك الذى عاشوا يستمتعون بكل شئ

١- المصدر السابق ص ٣٤٧.

٢ – تاريخ الخلفاء للسيوطى ، ص ٣٤٧ .

علــى مــرأى ومسمع من الخليفة نفسه الذين شاركهم هذا الرغد وتلك السعادة .

وفى عهــد المــتوكل – الذى اتسم بالضعف فى مواجهة الأتراك كــالعهود الــتى ســبقه تماما – انتهز الروم فرصة ضعف الخلافة وما أصــاب الــبلاد مــن المصائب والنكبات فأغاروا على أملاك الخلافة العباسية فى دمياط ، يقول السيوطى : " وفى سنة ثمان وثلاثين (يعنى ومائتين) كبست الروم دمياط ونهبوا وأحرقوا وسبوا منها ستمائة امرأة وولوا مسرعين فى البحر " [١]

ويســاور المــتوكل شــك فى الأتراك ويتوجس منهم خيفة فيترك العــراق متجها إلى الشام ويسكن دمشق شهرين أو ثلاثة ، ولكنه يعود أدراجه مرة أخرى إلى العراق "[٢]

يقول الأستاذ / أحمد أمين : " لابد أن يكون المتوكل قد شعر بهذا الجو الخانق بما يثيره الأتراك من شرور ولابد أن يكون قد أحس الخطر عــلى حياته منهم ففكر أن ينقل عاصمة الخلافة من العراق إلى دمشق وأن يعــود إلى عاصمة الأمويين لعله يجد فيها من العنصر العربى من يغــنيه عــن العنصر التركى ففى سنة ٢٤٣هــ أى بعد خلافته بإحدى عشرة سنة رحل إلى دمشق ولكنه لم يطل مقامه بها"[٣]

١-المصدر السابق ، ص ٣٤٨ .

٢- المصدر السابق ، ص ٣٤٨ .

٣-ظهر الإسلام ،ج١ ص ١٠ .

ويـــتحقق مـــا كـــان يخشاه المتوكل فبعد عودته من دمشق بأربع ســـنوات يقتل بيد من أسلمهم مقاليد الأمور ومن مهَّد لهم أبوه فى أرض الخلافـــة العباسية يقتل المتوكل بيدهم أشنع قتلة تهتز لها أركان الخلافة الإســـلامية ، يقول السيوطى : " كان المتوكل بايع بولاية الخلافة لابنه المنتصر ثم المعتز ثم المؤيد ثم إنه أراد تقديم المعتز لمحبته لأمه فسأل المنتصـــر أن يـــنزل عن العهد فأبى فكان يحضره مجلس العامة ويحط منزلته ويتهدده ويشتمه ويتوعده واتفق أن الترك انحرفوا عن المتوكل لأمور فاتفق الأتراك مع المنتصر على قتل أبيه فدخل عليه خمسة وهو فى جوف الليل فى مجلس لهوه فقتلوه هو ووزيره الفتح بن خاقان وذلك فى خامس شوال سنة سبع وأربعين ومائتين " [١]

إن مـــا حـــدث للمتوكل كان نتيجة حتمية لتشجيع الخلفاء الأتراك ومساعدتهم إياهم لبسط نفوذهم على كل شئ فى الدولة وأصبح الأتراك بتشـــجيع الخلفاء لهم وتأييدهم لكل ما يأتون به من نزق وطيش ، أصبح الأتـــراك بذلـــك كله متحكمين فى أمور الدولة بيدهم الأمر والنهى يقول الأســـتاذ /أحمد أمين : " أصبحت أمور الدولة فى يد الأتراك وأصبحوا مصـــدر قـــلق واضطراب فهم يكرهون الفرس والعرب ، وهم أنفسهم ليســـوا فى وفـــاق بعضـــهم مع بعض وهم لا ينقطعون عن المؤامرات والدسائس وتعصب كل فريق لقائد منهم وهم كثيروا الطمع فى الأموال

١-تاريخ الخلفاء للسيوطى ، ص ٣٥٠ .

لا يشبعون ، وعلى الجملة فقد أصبحت " دار السلام " وما حولها ليست دار سلام " [١]

إن قـتل المـتوكل بيـد الأتراك جعل نفوذهم أقوى وأشد وصار عودهم بعد ذلك أمنع وأصلب وأصبحوا مرهوبى الجانب أكثر مما كانوا وهل بعد الاعتداء على خليفة المسلمين قوة ومنعة ؟ " كان قتل المتوكل أول حادثـة اعتداء على الخلفاء العباسيين فكل من كان قبله مات حتف أنفه إلا الأمين فقد قتل بعد هزيمته فى الحرب . ولم يكن قتل المتوكل اعـتداء على المتوكل وحده بل هو قتل لسلطان كل خليفة بعده ولم يكن قـتله بيـد " باغر " وحده بل بيد الأتراك ، وكان فى قتله حياة للأتراك وسـلطانهم وإنذار عام للبيت المالك أنه من أراد أن يلى الخلافة فليذعن إذعانـا تامـا للأتـراك ومن حدثته نفسه – من الخليفة فمن دونه – أن يـناوئهم فـليوطن نفسه على القتل ، وهكذا كانت هذه الحادثة مصرع الخلافـة ومجد الأتراك وكان الخليفة بعده خاتما فى إصبعهم أو أقل من ذلك حتى قنع بالسكة والخطبة "[٢]

بهذا كله اتسمت الحياة الاجتماعية فى الدولة الإسلامية قبيل القرن الـرابع الهجرى اتسمت بالفوضى والظلم – حتى للخلفاء أنفسهم – كما اتسـمت بإشـاعة الذعر والخوف فى كل مكان وانقسم الناس فئتين فئة موسـرة غـنية تمتلك كل شئ وتسيطر على كل شئ وهم الأتراك ومن سار فى ركبهم من الخلفاء وأهل البيت المالك ، وفئة فقيرة كادحة سلبت

١- ظهر الإسلام ، ج١ ص ١٠

٢-ظهر الإسلام ، ج١ ص ١١

كل شئ وحرمت من كل شئ حتى حريتها وهؤلاء هم بقية الشعب المسلم الكادح الذى فدح بمصيبة الأتراك تلك المصيبة التى جرها عليه خلفاؤه والقائمون على أمره.

كثر الأتراك فى البلاد كثرة بالغة بعد أن استتب لهم الأمر وتزاوجوا وتناسلوا وشاركهم العرب وغيرهم فى هذا التزاوج حتى اختلطت الأنساب فى الدولة الإسلامية لدرجة أن بعض الخلفاء أنفسهم كانت أمهاتهم غير عربيات بل كنّ إما تركيات أو روميات ، كنّ جوارى لدى الخلفاء وتزوجهن هؤلاء الخلفاء فكان معظم أبناء الخلفاء من هؤلاء الجوارى. والدارس لحياة خلفاء الدولة العباسية والباحث فى تاريخهم يجد على سبيل المثال لا الحصر أن أبا جعفر المنصور أمه أم ولد واسمها " سلامة " البربرية "[١]

و " أم ولد " اصطلاح استعمله العرب كناية عن الأمة التى تنجب ولدا يتولى الخلافة أو ولاية العهد وتسمى " أم ولد " تمييزا لها عن الزوجة الحرة"[٢]

وكذلك موسى الهادى أبو محمد بن المهدى بن المنصور أمه أم ولد بربرية اسمها " الجيزران" [٣] والمأمون عبد الله أبو العباس بن الرشيد

١- تاريخ الخلفاء للسيوطى ، ص ٢٥٩ .

٢- حضارة الدولة العباسية د . أحمد محمد رمضان – الجهاز المركزى للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م ، ص ٦٣ .

٣- تاريخ الخلفاء ، ص ٢٧٩ .

أمــه أم ولــد واســمها " مراجل"[١] وكذلك كان أخوه المعتصم بالله ابو اســحق محمــد بن الرشيد كانت أمه أم ولد من مولدات الكوفة واسمها "ماردة"[٢] وكان الواثق بن المعتصم كذلك كانت أمه أم ولد رومية اسمها " قــراطيس"[٣] والمــتوكل بن المعتصم أيضا كانت أمه أم ولد واسمها "شــجاع"[٤] وابن المتوكل المنتصر بالله أمه أم ولد أيضا رومية واسمها "حبشية "[٥] وكذلك كان المستعين بالله أخو المتوكل وابن المعتصم أمه أم ولــد واســمها " مخارق "[٦] والمعتز بالله بن المتوكل كانت أمه أم ولد روميــة تســمى " قــبيحة "[٧] وكذلــك كان المهتدى بالله بن الواثق بن المعتصم كانت أمه أيضا أم ولد وتسمى " وردة " [٨] والمعتمد بالله أحمد بــن المتوكل كانت أمه رمية واسمها " فنيان " [٩] وكذلك أخوه المعتضد بالله بن المتوكل أمه أم ولد واسمها " صواب"[١٠] والمكتفى بن المعتضد أمــه تركية واسمها " جيجك "[١١] وكذلك كان المقتدر أخو المكتفى وابن

١-المصدر السابق ، ص ٣٠٦ .

٢-المصدر السابق ص ٣٣٣

٣-المصدر السابق ، ص ٣٤٠

٤-المصدر السابق ، ص ٣٤٦ .

٥-المصدر السابق ، ص ٣٥٦

٦-المصدر السابق ، ص ٣٥٨

٧-المصدر السابق ، ص ٣٥٩

٨-المصدر السابق ، ص ٣٦١

٩-المصدر السابق ، ص ٣٦٣

١٠-المصدر السابق ، ص ٣٦٨

١١-المصدر السابق ، ص ٣٧٦

المعتضـــد والـــذى أطل القرن الرابع الهجرى على المسلمين وهو على كرسى الخلافة كانت أمه تركية أيضا اسمها " غريب "[١] وقيل " شغب" وكذلــك القاهــر بالله أخو المقتدر وابن المعتضد أيضا كانت أمه أم ولد واسمها " فتنة "[٢]

وكذلــك كـــان مـــن بعدهم الراضى بن المقتدر والمتقى بالله أخوه والمســـتكفى بالله بن المكتفى بن المعتضد والمطيع بن المقتدر والطائع بن المطيع والقادر بالله بن المقتدر وآخر خلفاء القرن الرابع كل هؤلاء كانت أمهاتهم غير عربيات .[٣]

وظل الحال على ما هو عليه كل يوم يزداد سلطان الأتراك ويخبو ســلطان الخلافــة وتــتمكن أيديهم من الأمور أكثر مما تمكنت وتلعب أهواؤهــم بمقدرات الخلافة والمسلمين أكثر مما لعبت من ذى قبل لعبوا بالمستعين بالله بن المعتصم وكان معهم لا كلمة له ولا رأى يمضى على هواهــم . يقول السيوطى :" ولم يكن للمستعين مع "وصيف" "وبغا" أمر حتى قيل فى ذلك :

خليفةٌ فى قفصْ   بين وَصيفٍ وبُغَـــا
يَقولُ ماَ قالاَ لهُ   كما تقولُ البَبَّغَـــا[٤]

١-المصـــدر السابق ، ص ٣٧٨ ، وينظر صلة تاريخ الطبرى لعريب بن سعد القرطبى (ملحق بذيول تاريخ الطبرى) دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ص ٢٨ .

٢-المصدر السابق ، ص ٣٨٦

٣- المصدر السابق (تاريخ كل خليفة على حده)

٤- المصدر السابق ص ٣٥٨ .

وكانت نهايته أن ذبح بأمر من المعتز ابن أخيه المتوكل وبيد سعيد الحاجب الذى ذبحه كما يقول السيوطى فى ثالث شوال من السنة " يعنى سنة اثنتين وخمسين ومائتين "[١]

ومـــا فعلـــه المعـــتز بعمه لم يكن سوى نتيجة لوقيعة بينهما حاك الأتـــراك خيوطهـــا ثـــم وقفوا إلى جوار المعتز وشجعوه على أن يفعل بالمستعين ما فعل .

وتمضى الأيام ويلقى المعتز حتفه بيد الأتراك الذين نصَّبوه وسعوا فى خلافـــته وكأنما أراد الأتراك ثمناً لتلك الخلافة التى وهبوها للمعتز فكـــانوا لا يكفون عن طلب المال وذات يوم ألحوا عليه فى طلب المال ولجأ الخليفة إلى أمه طالبا منها المال لينفقه فيهم فأبت وشحّت نفسها ولم يكـــن قـــد بـــقى فى بيت المال شئ فاجتمع الأتراك على خلعه فجاءوه وطالـــبوه بالخروج إليهم فأبى الخروج متعللا بالمرض فأخرجوه عنوة وضـــربوه بالدبابيس كما يقول السيوطى – وأقاموه فى الشمس فى يوم صـــائف وهـــم يلطمون وجهه ويقولون له : اخلع نفسك واضطروه بعد طوال عذاب أن يسلم بالخلافة لمحمد بن الواثق الملقب " المهتدى بالله " ومـــات المعـــتز من أثر هذا التعذيب بعد خمس ليال . مات بعد أن منع الماء عنه فكان أول ميت مات عطشاً كما يقول السيوطى"[٢]

ويمكن لكل إنسان أن يتخيّل مدى ما وصلت إليه الحياة الاجتماعية مـــن تدهـــور فى البلاد الإسلامية فى هذه الآونه حيث يطالب الأتراك

١- المصدر السابق ص ٣٥٩ .

٢- المصدر السابق ص ٣٦٥ ، ٣٦٠

الخـــليفة بالمال فلا يجد فى بيوت المال ما يسد به شراهتهم ويسكت به أصواتهم التى لا تكل ولا تتعب طالبة المزيد من المال فى كل يوم .

فإذا كان الخليفة نفسه لا يجد فى بيوت المال شيئاً فما بالنا بطبقات الشعب الكادحة الفقيرة التى فُدِحَتْ بخلفاء ضعفاء وأتراك مستبدين .

وهكــذا اختــلت نظم الدولة وانقلبت موازين الحياة وأحس الناس الحــرمان والحاجــة لاستبداد الأتراك وتحكمهم اللامحدود فى كل شئ وســيطرتهم عــلى كبير الأمور وصغيرها وظلت الحياة هكذا حتى بدأ القــرن الرابع الهجرى فكان صورة مطابقة لما سبقه . بدأ القرن الرابع والمقــتدر على كرسى الخلافة صبى لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره إلاَّ بأيام قليلة "[١]

وفســدت الحياة بسبب صغر سن الخليفة وقلة حنكته وتجربته فى الحيــاة يقــول الســيوطى :" صار الأمر والنهى لحرم الخليفة ولنسائه لركاكــته وآل الأمــر إلى أن أمرت أم المقتدر " بمثل "[٢] القهرمانة أن تجــلس للمظالم وتنظر فى رقاع الناس كل جمعة فكانت تجلس وتحضر القضــاة والأعيــان وتــبرز التواقيع وعليها خطها "[٣] تحكم النساء فى مقــدرات الناس والخليفة مشغول بأهوائه غارق فى ملذاته لا يدرى من أمــور دولــته شيئاً فقد كان كما يقال عنه :" مؤثرا للشهوات والشراب مــبذرا وكــان النســاء غلبن عليه فأخرج عليهن جميع جواهر الخلافة

١- صلة تاريخ الطبرى ص ٢٨ وينظر تاريخ الخلفاء ص ٣٧٨ .

٢- جاء فى صلة تاريخ الطبرى أن اسمها " ثمل "

٣- المصدر السابق ٦٧ وينظر تاريخ الخلفاء ص ٣٨١ .

ونفائســـها وأعــطى بعــض حظاياه الدُّرَّة اليتيمة ووزنها ثلاثة مثاقيل وأعطى "زيدان" القهرمانى سبحة جوهر لم يُر مثلها وأتلف أموالاً كثيرة وكـــان فى داره أحــد عشــر ألف غلام خصيان غير الصقالبة والروم والسود "[١]

خــليفة هذه سنُّة وهذا شأنه ليس من العجيب أن تختل الأمور فى خلافته وأن تسود الفوضى وينتشر الظلم ويعم الفساد . يتحدث السيوطى فى تاريخ الخلفاء عن بعض مظاهر هذه الفوضى وذلك الفساد فيقول : " وفى ســنة ثمـــان يعنى وثلاثمائة . غلت الأسعار ببغداد وسغبت العامة لكـــون حامد بن العباس ضمن السواد وجدد المظالم ووقع النهب وركب الجــند فيهـــا وشـــتتهم العامـــة ودام القتال أياما وأحرق الحُبس وفتحوا السُّــجون ونهبوا الناس ورجموا الوزير واختلت أحوال الدولة العباسية جداً "[٢].

اســتغل الأتراك كل هذه الأمور صغر سن الخليفة وحداثته وعدم حنكـــته وتجربته واستيلاء أمه والنساء على مقاليد الأمور ومفاتيح بيت المـــال ولـــم يكف الأتراك عن مطالب المال والمقتدر يفرّق فيهم أموالا كـــثيرة إلاَّ أنـــه لم يشبعهم "[٣] ولما لم يجد ما يسد به مطالبهم المستمرة ويشبع به بطونهم النهمة ونفوسهم الجشعة حاربوه وعلى رأسهم "مؤنس" وكانت نهايته على أيديهم كما كانت نهاية بعض آبائه وأجداده يقول ابن

١- تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٣٨٤

٢- المصدر السابق ٣٨١ ، ٣٨٢ وتنظر صلة تاريخ الطبرى ص ٣٠٨ .

٣- الكامل فى التاريخ لابن الأثير دار الكتاب العربى بيروت جـــ ٦ ص ٢٢٠ .

الأثيـــر :" وكـــان ما فعله مؤنس سبباً لجراءة أصحاب الأطراف على الخـــلفاء وطمعهـــم فيمـــا لم يكن يخطر لهم على بال وانخرقت الهيئة وضــعف أمـــر الخلافة حتى صار الأمر إلى ما نحكيه على أن المقتدر أهمـــل مـــن أحوال الخلافة كثيرا وحكّم فيها النساء والخدم وفرّط في الأمـــوال وعـــزل من الوزراء وولى وأوجب طمع أصحاب الأطراف والنواب وخروجهم عن الطّاعة وكان جملة ما أخرجه من الأموال تبذيرا وتضييعاً فى غير وجه نيفاً وسبعين ألف ألف دينار "[١]

ويقـــول الســـيوطى :" وفى سنة عشرين (يعنى وثلثمائة) ركب "مؤنس" على "المقتدر" فكان معظم جند مؤنس البربر فلما التقى الجمعان رمى بربـــرى المقـــتدر بحربه سقط منها إلى الأرض ثم ذبحه بالسيف وشـــيل رأسه على رمح وسلب ما عليه وبقى مكشوف العورة حتى ستر بالحشيش ثم حفر له بالموُضع ودفن وذلك يوم الأربعاء لثلاث بقين من شوال "[٢]

وظـــل الحـــال عـــلى فســـاده بعد موت المقتدر وتولى القاهر بن المعتضـــد فبعد ولايته بسنة واحدة شغب عليه الجند واتفق مؤنس وابن مقلة وآخرون على خلعه بابن المكتفى فتحيّل القاهر عليهم حتى أمسكهم

١- المصدر السابق حـــ ٦ ص ٢٢١ ، ٢٢٢

٢- تاريخ الخلفاء ص ٣٨٤ وصلة تاريخ الطبرى ص ١٥١ ، ١٥٢ والكامل فى التاريخ حـــ ٦ صـــ٢٢١

وذبحهـــم وطيّـــن على ابن المكتفى بين حائطين وأمّا ابن مقلة فاختفى وأحرقت داره ونهبت دور المخالفين ثم أطلق أرزاق الجند فسكتوا .[١] .

عـــاش "القاهـــر" ومن حوله فى ترف ورغد لا يحسّ جوع شعبه وبؤســـه . حياة قائمة على التناقض بين الخليفة وجماعته من جهة وبين أفراد شعبه من جهة أخرى .

عـــن "القاهر" هذا يتحدث السيوطى فيقول :" وقال الصولى : كان أهوج سفّاكاً للدّماء قبيح السّيرة كثير التلون والاستحالة مدمن الخمر"[٢].

وعـــن أمواله وبساتينه التى كان ينعم بها وشعبه فى حرمان شبه كـــامل إن لم يكن كاملا يقول السيوطى :" وقال المسعودى : أخذ القاهر مـــن مؤنـــس وأصحابه مالا عظيما فلما خلع وسحل طولب بها فأنكر فعذب بأنواع العذاب فلم يقر بشئ فأخذه الراضى بالله فقربه وأدناه وقال لـــه : قد ترى مطالبة الجند بالمال وليس عندى شئ والذى عندك فليس بـــنافع لك فاعترف به فقال : أما إذا قلت هذا فالمال مدفون فى البستان – وكان قد أنشأ بستانا فيه أصناف الشجر حملت إليه من البلاد وزخرفه وعمل فيه قصرا . وكان الراضى مغرما بالبستان والقصر .فقال : وفى أى مكـــان المـــال فيـــه ؟ فقال : أنا مكفوف لا أهتدى إلى مكانه فاحفر البستان تجده . فحفر الراضى البستان وأساسات القصر وقلع الشجر فلم

١- تاريخ الخلفاء ص ٣٨٦ وتنظر الكامل فى التاريخ جـــ ٦ ص ٢٢٩ .

٢- تاريخ الخلفاء ص ٣٨٨ .

يجـد شـيئا فقال له : أين المال ؟ فقال " وهل عندى مال ؟ وإنما كانت حسرتى فى جلوسك فى البستان وتنعمك فأردت أن أفجعك فيه "[١]

وعـن الـترف الذى عاش فيه الخلفاء ومن حولهم والبؤس الذى قاسـاه الـناس فى تلك العهود المظلمة وهذه الحقبة السوداء فى تاريخ الإسلام والمسلمين يحدثنا الأستاذ أحمد أمين فيقول : " حيثما نظرنا إلى كـل قطر من أقطار العالم الإسلامى فى ذلك العصر رأينا الثروة غير موزعة توزيعا عادلا ولا متقاربا ورأينا الحدود بين الطبقات واضحة كل الوضوح فجنة ونار . نعيم مفرط وبؤس مفرط وإمعان فى الترف يقابله فقدان القوت وهذا الترف والنعيم حظ عدد غير قليل هم الخلفاء والأمراء ومـن يلوذ بهم من الأدباء والعلماء وبعض التجار . ثم البؤس والشقاء والفقـر لأكـثر الناس وحتى غنى الأغنياء فى كثير من الأحيان ليس محصـنا بالأمـان فهو عرضة لغضب الأقران أو غضب ذى السلطان الأعلى فيصادرون فى أموالهم ويصبح حالهم أشد بؤسا من فقير نشأ فى الفقر "[٢].

مصائب جّمة ونكبات كثيرة تعرض لها المسلمون فى ظل الخلافة العباسـية . مصـائب سّببها الأتراك بتحكمهم وسوء تصرفهم وفسادهم وظلمهم الذى تفشّى فشمل كل شئ وغطى على كل بيت . ونكبات حلّت بالمسـلمين بسبب ضعف خلفائهم وانغماس هؤلاء الخلفاء الضعفاء فى شـهواتهم ومـلذاتهم وأهوائهـم الخاصة وفوق هذا وذاك كانت هناك

١- المصدر السابق ص ٣٨٩ ، ٣٩٠ .

٢- ظهر الإسلام لأحمد أمين ج١ ص ٩٧ ، ٩٨ .

مصـــائب طـــبعية حـــلت بـــبغداد وغيـــرها من بلاد المسلمين . يقول السـيوطى:" وفى سنة ثمان وعشرين (يعنى وثلاثمائة) غرقت بغداد غـــرقا عظيمـــا حتى بلغت زيادة الماء تسعة عشر ذراعا وغرق الناس والبهائم وانهدمت الدور "(١)

حيـــاة مجدبـــة بالنسبة لأفراد الشعب أما بالنسبة للأتراك والخلفاء وأتـــباع **هؤلاء وأولئك فحياة رغدة ونعيم مقيم وسعادة لا نهاية لها كما يظنون....**

يقـــول الأســـتاذ / أحمد أمين :" والخلفاء من أول العصر العباسى يعلو كل خليفة ما قبله درجة أو درجات فى الترف والنعيم والإمعان فى فنون الحضارة والأغنياء يتبعونهم فى ذلك على قدر مواردهم "(٢).

ويقـــول د. شـــوقى ضيف عن النعيم الذى كان يعيش فيه الخلفاء وأتباعهم :" وطبيعى أن تدفع هذه الأموال لا إلى النعيم فحسب بل أيضا إلى الـــترف فى الحيـــاة وكـــل أسبابها المادية من دور مزخرفة وفرش وثيرة وثياب أنيقة معطرة ومطاعم ومشارب من كل لون والتماس لكل أدوات الزينة والتفنن فيها تفننا يتيح كل ما يمكن من استمتاع بالحياة"(٣)

١- تاريخ الخلفاء ص ٣٩٣

٢- ظهر الإسلام جـــ١ صـــ ١٠٢

٣- العصر العباسى الأول د. شوقى ضيف دار المعارف بمصر الطبعة الخامسة ص٤٨.

ثم يقول :" ولا ريب فى أن هذا كله على حساب العامة المحرومة الـتى كـانت تحيـا حيـاة بؤس تقوم على شظف العيش لينعم الخلفاء والوزراء والولاة والقواد وكبار رجال الدولة وأمراء البيت العباسى"[١].

ويـرجع أستاذنا الدكتور / محمد مصطفى هدارة هذا الرغد وذلك البذخ الذى أصبحت حياة الخلفاء العباسيين متسمة به -يرجع ذلك كله- إلى اتصال العرب بغيرهم من الأمم المتحضرة فيقول :" ولعلنا نستطيع أن نقـول إن تأسـيس بغداد كان نقلة جديدة لتطور المجتمع الإسلامى وإغـراقه فى الحضـارة ومظاهـرها المادية وانغماسه أكثر فأكثر فى أسـاليب الحياة الأجنبية عنه تلك التى كانت تحياها الشعوب المتحضرة المغلوبة على أمرها "[٢]

ويقـول أستاذنا د. هدارة موضحا مدى اتساع الفجوة بين الأثرياء والذيـن لا يجدون قوت يومهم :" وكان من أثر فقدان التوازن فى الحياة الاجتماعية أيام الأمين وإنفاقه أموال الدولة على ملذاته وملاهيه أن ظهر الاخـتلال واضـحا فى البـناء الاجتماعى وازدادت الهوة اتساعا بين الطبقات المختلفة وانكشفت بغداد الفاتنة الثرية المتلألئة بالمال والجواهر عـن جانـبها الفقيـر المحطم الذى لايجد قوت يومه وازدادت الصورة

١- المرجع السابق ص ٥١ .

٢- اتجاهـات الشـعر العـربى فى القـرن الثانى الهجرى د. محمد مصطفى هدارة دار المعارف ١٩٦٣ ص ٦٨ .

وضـــوحا بجوانـــبها المختـــلفة حين حدثت الفتنة بين الأمين والمأمون وتعرضت بغداد لحصار مجهد عنيف.[١]

وظـــلت مظاهـــر هـــذه الحياة سائدة فى كل عصور خلفاء الدولة العباســـية من العصر الأول حتى العصر الثانى . وهذه نتيجة حتمية لما كان يحدث من الخلفاء وأعوانهم وما دام الأتراك مسيطرين على مقاليد الأمـــور فى الدولة يولون من يشاءون ويعزلون من يريدون فلا بد من أن تظل الحياة مصطبغة بصبغاتهم متسمة بسماتهم . ولقد أدى ذلك كله إلى انقســـام المجتمع إلى طبقات متباينة . يقول د. شوقى ضيف :" كان يتوزع مجتمع العصر العباسى الثانى ثلاث طبقات أساسية : طبقة عليا تشتمل على الخلفاء والوزراء والقواد والولاة ومن يلحق بهم من الأفراد وكـــبار رجـــال الدولة ورءوس التجار وأصحاب الإقطاع من الأعيان وذوى اليســـار . وطـــبقة وســـطى تشتمل على رجال الجيش وموظفى الدواوين والتجار والصناع الممتازين . ثم طبقة دنيا تشتمل على العامة مـــن الزراع وأصحاب الحرف الصغيرة والخدم والرقيق ويأتى فى إثر تلك الطبقات أهل الذمة "[٢] .

هذا التنوع فى الطبقات وذلك التفاوت الكبير بينها أدى إلى انحدار الحيـــاة الاجـــتماعية إلى أســـوأ صورة . يقول د. إبراهيم أبو الخشب:" ولذلـــك انحدرت الحياة الاجتماعية انحدارا شنيعا نتيجة لذلك كله وكان مـــن أثر الحاجة عند المحرومين أن احتالوا على العيش بتجارة الرقيق

١- المرجع السابق ص ٧٢ .

٢- العصر العباسى الثانى د. شوقى ضيف دار المعارف بمصر الطبعة الثانية ص ٥١ .

وكثرت بذلك الجوارى فى منازل الأغنياء واضطر كثير من الناس تحت ضغط الفقر إلى احتراف الغناء ومنادمة الوزراء والخلفاء وتبع ذلك كله تهـاون فى بعـض الفضائل وإلحاد فى الشرع ورقة فى الدين وشيوع لـلزندقة وتشكيك فى كل القيم والمعايير وظهرت ألوان من الأدب تنحو ناحية الهدم لا ناحية البناء . وكان ذلك على سمع الخلافة أو بصرها من غيـر نكيـر صـارم ولا نهى رادع وأصبح التطاول على الخليفة أو الخلافة شيئا غير جديد"[١]

وعن الرقيق وتيار الغناء يحدثنا الأستاذ / أحمد أمين فيقول :" كثر الرقيق فى هذا العصر كثرة بالغة وامتلأت القصور به وكان له أثر كبير فى الحياة الاجتماعية فكثر نسل الجوارى واختلطت الدماء حتى الخلفاء أنفسـهم فى هذا العصر كانوا من نسل السرارى قال ابن حزم فى نقط العـروس :" لـم يـل الخلافة فى الصدر الأول من أمه أمة حاشا يزيد وإبراهيم ابنى الوليد ولاوليها من بنى العباس من أمه حرة حاشا السَّفاح والمهدى والأمين ولم يلها من بنى أمية بالأندلس من أمه حرة أصلاً "[٢]

وهـا هو ذا أبو حيان التوحيدى يحدثنا عن بعض سمات عصره . وأبـو حيان واحد من الذين عاشوا فى القرن الرابع الهجرى . يقول :" وقـد بليـنا بهـذا الدهـر الخـالى من الديانين الذين يصلحون أنفسهم

١- د. إبـراهيم أبـو الخشـب ، تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى الأول الهيئة المصرية العامة للكتاب فرع الاسكندرية ، ص١٠٧.

٢- ظهـر الإسـلام لأحمـد أمين جـ١ ص ١٣٤ (وفى هذا الفصل شبه حصر لخلفاء العباسيين من أولاد السرارى ص ٩ ، ١٠) .

ويصـــلحون غيـــرهم بفضل صلاحهم ، الخاوى من الكرام الذين كانوا يتســـعون فى أحوالهم ويوسعون على غيرهم من سعتهم وكانوا يهتمون بذخائـــر الشكر المعجل فى الدنيا ويحرصون على ودائع الأجر المؤجل فى الأخـــرى ويتلذذون بالثناء ويهتزون للدعاء وتملكهم الأريحية عند مسئلة المحتاج وتعتريهم الهزة معها والابتهاج وذلك لعشقهم الثناء الباقى ، والصنيع الواقى ، ويرون الغنيمة فى الغرامة والربح فى البذل والحظ فى الإثيـــار والزيادة فى النقص أعنى بالزيادة الخلف المنتظر وبالنقص العطاء"[١] .

ويموت "الراضى" فى سنة تسع وعشرين وثلاثمائة ويتولى الخلافة بعـــده أخوه "المتقى بالله" ولم تكن الحياة فى عهده بأحسن مما كانت فى عهد الراضى ومن سبقه بل ظل الغلاء وعم القحط كل مكان وظل الناس يحســـون طعم الحاجة ويذوقون مر الحرمان . ويقول السيوطى :" وفى سنة ثلاثين (يعنى وثلاثمائة) كان الغلاء ببغداد فبلغ كرّ الحنطة ثلثمائة وستة عشر ديناراً واشتد القحط وأكلوا الميتات وكان قحطا لم ير ببغداد مثله أبدا "[٢].

ويذكـــر صـــاحب صـــلة تاريخ الطبرى أن الغلاء اشتد فى سنة عشـــرين فقال مصورا بعض مظاهر الحياة الاجتماعية فى هذه السنة:

١- الإمـــتاع والمؤانســـة لأبى حيـــان الـــتوحيدى لجة التأليف والترجمة والنشر صححة وضـــبطه أحمـــد أمين وأحمد الزين منشورات المكتبة العصرية بيروت صيدا جـــ ١ ص ١٦ .

٢- تاريخ الخلفاء ص ٣٩٤

"وفيها (يقصد فى سنة تسع وعشرين وثلثمائة) ابتدأ الغلاء ببغداد وبلغ الكــر من الدقيق مائة وستين دينارا وكثر الموت حتى كان يدفن الجماعة من غير غسل ولا صلاة وظهر من قوم فيهم دين وصدقة عطف على الأحيــاء وتكفين الموتى وظهر من آخرين فجور ومنكرات وكان "على بن عيسى" و"البقرى" يكفنان الناس على أبواب دورهما "[١].

وأيــا ما كان الأمر فسواء كان الغلاء فى سنة تسع وعشرين أو كــان فى سنة ثلاثين فمن الروايتين تبدو قسوة الحياة ومدى ما وصلت إليــه الحالــة الاجــتماعية بين الناس . موت جماعى من الجوع وكأن الحــرب قائمة يسقط فيها القتلى بلا عدد فيكفنون ويدفنون بلا غسل ولا صــلاة . حيــاة قاسية يتجرع الشعب مرارتها فى ظل خليفة ضعيف وأتراك مستبدين . نعم كان الخليفة "المتقى" ذا دين وكان متعبدا ناسكاً إذ يقــول عنه السيوطى :" وكان كثير الصوم والتعبد ولم يشرب نبيذا قط وكان يقول لا أريد نديما غير المصحف "[٢]

ولكــن ما جدوى ذلك كله إذا كان الخلفية لا يملك من أمر الناس شيئا فهو خليفة بالاسم فقط أما المتصرفون فى أمور الناس فهم الأتراك وحدهــم يقــول السيوطى :" ولم يكن له (يقصد الخلفية المتقى) سوى الاسم والتدبير لأبى عبد الله أحمد بن على الكوفى كاتب بجكم "[٣].

١- صلة تاريخ الطبرى ص ٣٢٥ .

٢- تاريخ الخلفاء ص ٣٩٤ وينظر صلة تاريخ الطبرى ص ٣٤٧

٣- تاريخ الخلفاء ص ٣٩٤ وينظر الكامل فى التاريخ جـ ٦ ص ٢٧٨ .

لقــد بلغت الفوضى مداها ووصل الظلم والفساد إلى غايته ولم ينج من هذا الظلم أحد من عامة الناس حتى الخليفة المخلوع "القاهر" . يقول غــريب بــن ســعد القرطبى فى حوادث سنة ثلاثين وثلاثمائة :" وكان القاهــر محــبوبا فــتركه الموكلون به فخرج فرئى وهو يتصدق بسوق الــثلاثاء فبــلغ ذلــك البريدى[١] فأنفذ بمن أقامه وأجرى له فى كل يوم خمسة دراهم "[٢] .

ثــم يقــول عن البريدى " وظلم البريدى الناس وافتتح الخراج فى آذار (يعــنى ســنة ثلاثيــن وثلاثمائــة) وافتتح الجزية وأخذ الأقوياء بالضــعفاء وقــرر عــلى الحــنطة وسائر المكيلات من كل كرٍّ سبعين درهما[٣].

ولم يطل المقام "بالمتقى" الخليفة "التقى" الصائم العابد والمتخذ من المصحف نديما وأقول لم يطل به المقام إذ دبر الأتراك خطة لنهايته ففى ســنة ثــلاث وثلاثيــن سمل توزون[٤] عينيه بعد أن أظهر له الطاعة ليخدعه : ويقول صاحب الكامل فى التاريخ :" فلمّا سمله صاح وصاح مــن عــنده مــن الحــرم والخدم وارتجت الدنيا فأمر توزون بضرب

١- جاء فى تاريخ الخلفاء (اليزيدى) ص ٣٩٤ .

٢-صلة تاريخ الطبرى ص ٣٣٢ .

٣- المصدر السابق ص ٣٣٢ وتنظر الكامل فى التاريخ جـ ٦ ص ٢٨٤

٤- جاء فى تاريخ الخلفاء (نورون) بالراء المهملة .

الدبادب[١] لئلا تظهر أصواتهم فخفيت أصواتهم وعمى المتقى"[٢] وهكذا كان الأتراك يعاملون خلفاء المسلمين مستخفين بهم محتقرين إيّاهم .

ويذكـــر السيوطى أن الخليفة "القاهر" المخلوع والذى سملت عيناه من قبل لما بلغه أن عينى الراضى قد سملتا قال :

صرت وإبراهيم شيخى عمىً   لابـــد للشيخين من مصدر

مـــادام تـــــوزون له إمرة   مطاعة فالميل فى المجمر[٣]

ولقـــد بلغ الفقر بالقاهر هذا مبلغا عظيما حتى إن ابن الأثير يقول فى كاملـــه إن المســـتكفى بـــالله سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة قد أخرج القاهـــر بالله من دار الخلافة إلى دار ابن طاهر وكان قد بلغ به الضر والفقر إلى أن كان ملتفا بقطن جبة وفى رجله قبقاب خشب "[٤]

ويـــتولى الخلافة بعد المتقى المستكفى بالله وكانت مدة خلافته سنة وأربعـــة أشهر لم تكن الحياة فيها خيرا مما سبقها بل كانت صورة مما اتسم به العصر من فساد . وبعد هذه المدة القصيرة من خلافة المستكفى تسمل عيناه ويسجن ويخلفه المطيع ويكون أداة فى يد معز الدولة (أحمد بن بويه) يحركها كيفما يشاء وحيثما يريد.

١- جمع دبداب وهو الطبل

٢- الكـــامل فى الـــتاريخ حـــ ٦ ص ٣٠١ وتنظر صلة تاريخ الطبرى من ٣٤٩ وتاريخ الخلفاء ص ٣٩٦

٣- تاريخ الخلفاء ص ٣٩٦ .

٤- الكامل فى التاريخ حـــ ٦ ص ٣١٠ .

ولقـد أجدبت الحياة فى خلافة المستكفى وزاد الغلاء زيادة شديدة يقول السيوطى :" وفى هذه السنة (يعنى سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة) اشتد الغلاء ببغداد حتى أكلوا الجيف والروث وماتوا على الطرق وأكلت الكلاب لحومهم وبيع العقار بالرُغفان "[١] .

لم تعم هذه المصائب بغداد وحدها بل كان بمصر والرى والطالقان زلازل وفيضانات أدت إلى نضوب الحياة أكثر : ويقول السيوطى :"وفى سنة أربع وأربعين (يعنى وثلاثمائة) زلزلت مصر زلزلة صعبة هدمت البيوت ودامت ثلاث ساعات وفزع الناس إلى الله بالدعاء وفى سنة ست وأربعيـن نقص البحر ثمانين ذراعا وظهر فيه جبال وجزائر وأشياء لم تعهـد وكـان بالرى ونواحيها زلازل عظيمة وخسف ببلد الطالقان ولم يفـلت من أهلها إلا نحو ثلاثين رجلا وخسف بمائة وخمسين قرية من قـرى الـرى واتصل الأمر إلى حلوان فخسف بأكثرها وقذفت الأرض عظـام الموتى وتفجرت منها المياه وتقطع بالرى جبل وعلقت قرية بين السماء والأرض بمن فيها نصف النهار ثم خسف بها وانخرقت الأرض خروقا عظيمة وخرج فيها مياه منتنة ودخان عظيم .

وفى سنة سبع وأربعين عادت الزلازل بقم وحلوان والجبال فأتلفت خلقا عظيما وجاء جراد طبق الدنيا فأتى على جميع الغلات والأشجار[٢]

١- تاريخ الخلفاء ص ٣٩٨ .

٢- تاريخ الخلفاء ص ٣٩٩ ، ٤٠٠

وتطول خلافة المطيع حتى تبلغ تسعاً وعشرين سنة وأشهر ويخلفه ابــنه الطــائع ولكنهما كانا خليفتين اسما والأمر كله بيد بنى بُوَيْه يقول السيوطى :" وكان المطيع وابنه مستضعفين مع بنى بويه "[١].

إن أكــبر دليل على ضعف المطيع مع بنى بويه ما كان من معز الدولــة (أحمد بن بويه) حيال هذا الخليفة إذ أن معز الدولة نفسه هو الــذى قرر نفقة هذا الخليفة . يقول السيوطى :" وبويع له بالخلافة عند خلع المستكفى فى جمادى الآخرة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وقرر له معز الدولة كل يوم نفقة مائة دينار فقط "[٢]

مــلك بــنو بويــه الأمر كما كان يملكه من قبلهم الأتراك وساروا ســيرتهم من لهو وعبث وخمر وقيان وغلمان . ومن مظاهر هذه الحياة اللاهية العابثة الماجنة ما يرويه السيوطى عن بعض بنى بويه فيقول : "وكــانت وقعة بين عز الدولة وعضد الدولة وأسر فيها غلام تركى لعز الدولة فَجُن عليه واشتد حزنه وامتنع من الأكل وأخذ فى البكاء واحتجب عن الناس وحرم على نفسه الجلوس فى الدست وكتب إلى عضد الدولة يســأله أن يــرد الغــلام وتذلل فصار ضحكة بين الناس وعوتب فما ارعــوى لذلك وبذل فى فداء الغلام جارتين عوديتين كان قد بذل له فى الواحــدة مائـــة ألف دينار وقال للرسول إن توقف عليه فى رده فزد ما

١- المصدر السابق ص ٤٠٤

٢-المصدر السابق ص ٣٩٨ .

رأيـــت ولا تفكر فقد رضيت أن آخذه وأذهب إلى أقصى الأرض فردّه عضد الدولة عليه"[١]

مـــن أجـــل هـــذا انتشر الرقيق فى البلاد انتشارا ملموسا يقول " د. شوقى ضيف " :" كان الرقيق منتشرا فى كل مكان فى القصور وفى الأكـــواخ وفى الصـــناعات وفى الزراعة وكان كثيرا كثرة مفرطة فمنه السـندى ومــنه الإفــريقى الزنجى والحبشى والسودانى ومنه التركى والصقلبى ومنه الصينى والخراسانى والأرمانى والبربرى وكأنما كانت تجـتمع فيه كل الأجناس . ومع أن الإسلام قصر الرق على من يؤخذ فى الحرب أسيرا كافرا فقد مضى المسلمون محاكين شعوب العالم القديم يفســحون للتجارة فيه وجلبه من البلاد الأجنبية وكأنهم لم يستطيعوا أن يبطلوا هذه العادة عند الأمم المغلوبة كما كان منتظرا . بل لقد شاركوهم فيهــا ولــم تلبث تجارة الرقيق فى ديار الإسلام أن أصبحت ذات شأن عظيــم حــتى ليبــنى لها فى كل مدينة كبيرة سوق خاصة يقوم على مراقبتها موظف يسمى قيّم الرقيق "[٢] .

ويعلل آدم متز كثرة الرقيق فى البلاد فيقول :" على أنه كان يوجد بيــن المســلمين بعــض مــن شرار الفرق يعتبرون أنفسهم المسلمين ويعتبرون جميع من خالفهم أهلا للحرمان من الحقوق الشرعية ومن هذه الفــرق الضـــالة فرقة القرامطة الذين عظم شأنهم فى القرن الرابع فقد أحلوا استرقاق من يقع فى أيديهم من الأسرى وكان ذلك أمرا شنيعا فى

١- المصدر السابقة ص ٤٠٦ ، ٤٠٧

٢- العصر العباسى الثانى د. شوقى ضيف ص ٨٠

أيامهم فسرعان ما صار الكثيرون من الآدميين المسلمين من أهل الشام وجزيرة العرب والعراق أرقاء فى أيديهم"[١]

إن انتشار الرقيق بهذه الكثرة المفرطة لدليل على اتساع الهوة بين أفـراد الشعب ووجود تفاوت كبير بين طبقات هذا الشعب خاصة حين يعـامل هـؤلاء الرقيق معاملة قاسية ظالمة ، ويقول د. شوقى ضيف : "واستطاع كثير من الأرقاء المحررين أن يصلوا إلى أعظم المناصب فى الدولة وكان من هؤلاء الأرقاء من يتمتعون بجاه عظيم مثل قوّاد الترك طـوال العصـر غيـر أن جمهورا كبيرا منهم كان يعامل معاملة سيئة وخاصـة الـزنوج الذيـن كانوا يقومون بأعمال الحرب والزراعة فى البصـرة مما جعلهم يثورون لعصر المعتمد ثورة عارمة ولا ريب فى أن هذه المعاملة السيئة تخالف روح الإسلام مخالفة صريحة لا من حيث اسـترقاق الـناس بالشراء لا بالحرب فقط بل من حيث أخذهم بالعنف والعسف والظلم".[٢]

نعم إن هذه المعاملة القاسية تخالف روح الإسلام وتعاليمه ومناهجه التى خطها رسول الله صلى الله عليه وسلم وسار عليها أصحابه وخلفاؤه الراشـدون رضى الله عنهم فها هو ذا أبو بكر – رضى الله عنه يجود بماله فى سبيل شراء بلال من سيده ليعتقه ويحيمه من أذى سيده القاسى

١- الحضـارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى آدم متز نقله إلى العربية محمد عبد الهـادى أبو زيده مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٦ م / ١٩٤٧ م الطبعة الثانية ص ٢٢٦ .

٢- العصر العباسى الثانى د. شوقى ضيف ص ٨٠ .

الظـــلوم ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعامل مواليه معاملة يسودها الحب والإخاء. وها هو ذا كتاب الله الكريم القرآن الكريم العظيم يحوى آيات عديدة تحث على هذه المعاملة الحسنة وتدعوا إليها : يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة النساء :"

﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا [(١)] .

ولقــد خـــلق الله الناس متساوين سادتهم وعبيدهم ودليل ذلك قوله تعالى فى سورة النحل :"

وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ [(٢)]

ويقـــول ابـــن كثير معلقا على هذه الآية :" قال تعالى منكرا على الكافـــرين : أنـــتم لا ترضـــون أن تساووا عبيدكم فيما رزقناكم فكيف

---

١ – القرآن الكريم سورة النساء آية ٣٦.

٢– القرآن الكريم سورة النحل آية ٧١.

يرضى هو تعالى بمساواة عبيده له فى الإلهية والتعظيم ؟ قال ابن عباس فى هــذه الآية :" لم يكونوا ليشركوا عبيدهم فى أموالهم ونسائهم فكيف يشركون عبيدى معى فى سلطانى ؟"[١]

وها هو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم المعلم والنذير يقول :" إخوانكم خولكم جعلهم الَّلهُ تحتَ أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه ممـــا يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم " .

وقــال صــلوات الله وســلامه عليه :"من كانت له جارية فعلمها وأحســن إليهـا وتــزوجها كان له أجران فى الحياة وفى الأخرى أجر بالنكاح والتعليم وأجر بالعتق"[٢]

ويورد السيد سابق فى كتابه فقه السنة كثيرا من أحاديث رسول الله صــلى الله عليه وسلم توصى خيرا بالعبيد فعن على رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :" اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم ولقد نهى رســول الله صلى الله عليه وسلم عن مناداة الرقيق بما ي على تحقيرهم واســتعبادهم فيقول صلى الله عليه وسلم " لا يقل أحدكم عبدى أو أمتى وليقل فتاى وفتاتى وغلامى ".

١- مختصــر تفسير ابن كثير اختصارا وتحقيق محمد على الصابونى درا القرآن الكريم بيروت الطبعة السابعة المجلد الثانى ص ٣٣٨

٢- متن البخارى بحاشية السندى طبع مطبعة إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى وشركاه ج٢ ص٨٣.

ونهى صلى الله عليه وسلم عن ضربهم وأذاهم فعن ابن عمر قال: قال رسول الله عليه وسلم :" من لطم مملوكه أو ضربه فكفارتهَ عتقه "

وعن أبى مسعود الأنصارى رضى الله عنه قال :" بينا أن أضرب غلاما إذ سمعت صوتا من خلفى فإذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :" أعلم يا أبا مسعود أن الله أقدر منك على هذا الغلام " فقلت : هو حر لوجه الله فقال : لو لم تقل لمستكَ النار "(١)

ويقــول آدم متز معلقا عل معاملة الرقيق من قبل المسلمين :" وإذا كـــان النبى عليه السلام لم يلغ الرق فإنه أمر بما يضمن للأرقاء حسن المعاملة وإذا كان المسلمون يخالفون عن أمره فالنبى برئ من ذلك ولو أن المســـلمين أطاعوا ما أمرهم به نبيهم فى معاملتهم لما ملكت أيمانهم لكان حال الرقيق عند المسلمين أحسن منه عند غيرهم "(٢)

وإلى جانب الرقيق من الرجال كانت هناك الإماء والجوارى وكن كـــثيرات كـــثرة مفـــرطة أيضا يقول د.شوقى ضيف :" وكانت الإماء والجوارى فى الدور والقصور أكثر من الخصيان وأرقاء الرجال كانوا يفضـــلونهن على الحرائر لأنهن كن من أجناس وأشكال مختلفة ولم يكن بيـــنهن وبيـــن الرجال حوائل الحجاب مثل الحرائر اللائى يقترنون بهن وهم لا يعرفون من أمرهن شيئا بخلاف الجارية فإنها كانت معرضةلهم فى دور النخاســـين فكانوا يختارونها بحسب مشيئهم وموقعها فى أنفسهم

١- فقـــه السنة للسيد سابق دار الفكر بيروت طبعة اولى ١٣٩٧ هـــ / ١٩٧٧ م المجلد الثالث ص ٨٩ .

٢- الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع لأدم متز ص ٢٣٩ .

بخـــلاف الحرائــــر فقـــد كان الحجاب يحول بينهم وبين التعرف عليهن وكـــانوا يضطرون لاتخاذ دلالات يصفونهن لهم وقلما يتطابق الوصف مع الحقيقة وكان بين الجوارى المعروضات للبيع دائما كثير من الفاتنات الفارسيات والخرسانيات والأرمنيات والتركيات والروميّات فكن يستأثرن بقلوب الرجال ومن أجل ذلك لم يكونوا يعددون زوجاتهم فقد كفاهم اتخاذ الجوارى والإماء هذا التعدد وأكبوا عليه إكبابا "[١]

ومـــع هـــذه الـــزيادة المفرطة فى الجوارى والإماء والقيان زادت مجـــالس الغـــناء والـــلهو والطرب وكثر العبث وتضاءل الجد وعمت الفوضـــى . يقـــول الأستاذ / أحمد أمين :" وكثر تعليم الجوارى الغناء واتخذ أصحابهن لهن بيوتا معدة للسماع فى الأحياء المختلفة وكثرت هذه البيوت فى بغداد فى هذا العصر "[٢]

هـــذه المجـــالس اللاهية العابثة التى أصبحت سمة الدهر وعلامة العصـــر قد استطاعت أن تجذب إليها الناس للسماع حتى إن الكثير من العـــلماء والقضـــاه والصوفية لم يستطيعوا أن ينجوا بأنفسهم من حبائلها وأبـــو حيـــان الـــتوحيدى يصف لنا هذه المجالس ويذكر أسماء المغنين والمغـــنيات فيهـــا وأســـماء أولئك العلماء والأدباء والقضاة الذين كانوا يحضـــرونها ويشـــغفون بها يذكر أبو حيان أن "ابن فهم" الصوفى كان يطرب على غناء " نهاية " جارية ابن المغنى "[٣]

١- العصر العباسى الثانى د. شوقى ضيف ص ٨٢ .

٢- ظهر الإسلام ح١ ص ١٢٤

٣- الامتاع والمؤانسة حـــ٢ ص ١٦٦ .

ويذكر أيضا أبو حيان التوحيدى أن "ابن غيلان" البزاز كان يطرب علـى تـرجيعات " بلَّوْر " جارية ابن اليزيدى ويقول أبو حيان عن ابن غيلان هذا :" إنه كان إذا سمع منها غناءها انقلبت حماليق عينيه وسقط مغشـيا عليه وهات الكافور وماء الورد ومن يقرأ فى أذنه آية الكرسى والمعوذتين ويرقى "بهيا شراهيا "[١] .

وكذلـك يذكـر أبـو حيان التوحيدى أن أبا الوزير الصوفى كان يطرب على غناء " قلم القضيبية " ويحدثنا أبو حيان كذلك عن الجراحى أبى الحسن القاضى وطربه على غناء " شعلة " فيقول عنه :" مع قضائه فى الكرخ وردائه المحشى وكميه المفدرين ووجنتيه المتخلجتين وكلامه الفخـم وإطراقه الدائم فإنه يغمز بالحاجب إذا رأى مِرْطاً وأمل أن يقبل خـدا وقرطا . ثم يقول أبو حيان عن أبى الحسن القاضى أيضا وقيامته تقوم إذا سمعها (يعنى شعلة) ترجع فى لحنها :

لو أنَّ ما تبتلينى الحادثات به يلقى على الماء لم يشرب من الكدر .

يقول أبو حيان :" فهناك ترى شيبة قد ابتلت بالدموع وفؤادا قد نزا إلى الـلهاة مع أسف قد ثقب القلب وأوهن الروح وجاب الصخر وأذاب الحديـد وهـناك تـرى والله أحداق الحاضرين باهتة ودموعهم منحدرة وشهيقهم قد علا رحمة له ورقة عليه ومساعدة لحاله "

وكذلك كان المعلم غلام "الحصرى" شيخ الصوفية كان يطرب إذا سمع " ابن بهلول " يغنى . وكان ابن "صُبْر" القاضى قبل القضاء يطرب

١- هيا شراهيا : كلمة عبرانية منعاها" يا حى يا قيوم"

علـــى غـــناء " دُرَّة" جارية أبى بكر الجراحى . وكذلك كان ابن حجاج الشـــاعر يطـــرب على غناء " قِنْوة " البصرية ويقول أبو حيان :" وهى جارته وعشيقته وله معها أحاديث ومع زوجها أعاجيب وهناك مكايدات ورمى ومعايرات وإفشاء نكات " .

وكذلـــك يذكـــر أبو حيان أن " ابن معروف " قاضى القضاه كان يطرب على غناء " عَلَيَّة" .

وكذلـــك كـــان " ابـــن سمعون " الصوفى يطرب على غناء " ابن بهلول"[1] ويطيل أبو حيان الحديث حول هذه المجالس وأسماء المغنين والمغـــنيات ومشـــاهير الحاضرين للسّماع ثم يقول فى نهاية هذا السرد الطويل :" ولو ذكرت هذه الأطراب من السامعين والأغانى من الرجال والصبيان والجوارى والحرائر لطال وأملّ وزاحمت كل من صنف كتابا فى الأغانى والألحان وعهدى بهذا الحديث سنة ستين وثلاثمائة " .

ثـــم يكمل أبو حيان حديثه فيقول :" وقد أحصينا ونحن جماعة فى الكرخ أربعمائة وستين جارية فى الجانبين ومائة وعشرين حرة وخمسة وتســـعين مـــن الصـــبيان البدور يجمعون بين الحذق والحسن والظرف والعشـــرة هـــذا سوىً من كنا لا نظفر به ولا نصل إليه لعزته وحرسه ورقـــبائه وسوى ما كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء وبالضرب إلا إذا نشـــط فى وقت أو ثمل فى حال وخلع العذار فى هوى قد حالفه وأضناه

١- الإمتاع والمؤانسة حـــ ٢ ص ١٦٦ وما بعدها .

وترنم وأوقع وهز رأسه وصعد أنفاسه وأطرب جلاسه واستكتمهم حاله وكشف عندهم حجابه وادعى الثقة بهم والاستنامة إلى حفاظهم "[١]

وإذا كان أبو حيان التوحيدى قد سجل فى كتابه " الإمتاع والمؤانسة " ما دار بينه وبين الوزير أبى عبد الله العارض فى ليالى سمرهما وأنسهما وأن ما جاء فى هذا الكتاب كان فى المقام الأول لإمتاع الوزير ومؤانسته كما سمى الكتاب صاحبه فإن أبا حيان ربما جنح أحيانا إلى شئ من الخيال فى أحاديثه إلا أنه وإن جنح أحيانا إلى الخيال لم يمل عن الحق كل الميل فقد كانت هذه بعض سمات العصر وبخاصة القرن الرابع الذى عاش أبو حيان أحداثه وعاصر مشكلاته ووعيها عقله واختزنها فكره .

ولقد سجل لنا شعراء هذا القرن هذه السمات واضحة جلية . فالشعر مرآة العصر – كما يقولون – وإذا كان لنا أن نثبت هنا بعض ما فى شعر هذا القرن من السمات الاجتماعية التى وضحت مظاهرها فى الشعر . فلندرس ذلك عند شاعرين ذاع صيتهما واشتهرا شهرة بالغة واتخذ أحدهما من الآخر أستاذاً يشرف بالانتساب إليه . هذان الشاعران هما أبو الطيب المتنبى وأبو العلاء المعرى.

يقول د. إبراهيم أبو الخشب عن شعر المتنبى :" وإذا كان الشعر صورة لنفس الشاعر وانعكاساً لوجدانه وشعوره وأمله وطموحه ورضاه وغضبه وسعادته وشقائه فإن شعر المتنبى كان فيه ترفعه وكبرياؤه

١- المصدر السابق حـ ٢ ص ١٨٣ .

واتـــزانه وعقلـــه واحترامه للحق واحتقاره للباطل وسخريته من الملق وثورتـــه عـــلى الهـــوان والضّيم وحربه للتمويه والكذب وغضبه للرّق والعـــبودية وعـــدم رضـــاه عـــن الفوضى التى كانت تسود المجتمعات والأوساط فى وقته "[١] .

وهـــا هو ذا أبو الطيب المتنبى يصور مدى ما آل إليه أمر العرب من سوء حين ملكهم الأعاجم الذين كانوا فى يوم من الأيام خدما لهم . يقول المتنبى :

أحـــقُّ عافٍ بدمعكَ الهِمَمُ	أحـــدثُ شيئٍ عهداً بها القِدَمُ
وإنمَـــا الناسُ بالملوكِ ومَا	تفـــلحُ عُـــربٌ ملوكُها عجَمُ
لا أدَبٌ عندهم ولا حَسَبٌ	ولا عهـــودٌ لهـــمْ ولا ذِمَـــمُ
فى كلِّ أرضٍ وطِئْتُها أممٌ	تُـــرْعَى بعـــبدٍ كـــأنهمْ غَنَمُ
يستَخْشِنُ الخزَّ حينَ يلْبسُهُ	وكانَ يُبْرَى بِظفرهِ القَلَـــمُ[٢]

وهكـــذا تذهب نفس الشاعر حسرات إثر همم قد عفت ودرست مـــنذ القـــدم وإن مـــن الطبيعى أن يرتفع الناس بملوكهم ولكن هيهات للعرب وأنى لهم ذلك وقد ملكهم أعاجم وتحكم فى رقابهم قوم ليسوا من جنسهم قوم لا يرعون عهداً ولا يحفظون ذمة وأنى لهم ذلك وهم ممن

١- تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى د. إبراهيم أبو الخشب ص ٢٧٦ .

٢- ديـــوان أبى الطيـــب المتنبى بشرح العكبرى المسمى بالتبيان فى شرح الديوان ضبط وتصحيح مصطفى السقا ، إبراهيم الابيارى عبد الحفيظ شلبى ، دار المعرفة بيروت ج٤ ، ص٥٨، ٥٩.

ليـس لهـم أدب ولا حسـب . لقد تحكم هؤلاء العبيد فى رقاب سادتهم وأصـبحوا يمـلكون كل شئ وأصبح العرب معهم لا حول لهم ولا قوة كأنهم شياة يرعاها هؤلاء العبيد الذين أصبحوا يرفلون فى أثواب العز ويمشون فى الأرض مرحا كأنهم لم يحسوا طعم العبودية يوما وقد كانوا مـن قبل لا يلبسون إلاَّ الخشن من الثياب ويمشون حافية أقدامهم طويلة أظفارهم .

أبيـات تظهر من خلالها نفس المتنبى متحسرة على ما وصل إليه حال العرب الذين سادوا الدنيا يوما ما ثم هانوا بعد ذلك ليصبح عبيدهم سادة لهم .

ولا يزال المتنبى ناقماً على ذلك الدهر الذى ابتلى فيه النّاس بحكام سـفهاء صغار النفوس . لا يهمهم من الدنيا إلاَّ طعامهم وشرابهم يقول المتنـبى فى موضع آخر مصورا تلك الحياة التى انقلبت فيها الموازين رأسا على عقب :

فـؤادٌ مـا تسـلّيه المُـدامُ وعمـرٌ مثلُ ما يَهَبُ اللّئامُ
ودهـرٌ ناسُـهُ ناسٌ صغارٌ وإنْ كانتْ لهمْ جثثٌ ضِخامُ
وما أنا منْهُمُ بالعيشِ فيهمْ ولكنْ معْدنُ الذهبِ الرَّغَامُ
أرانـبُ غيرَ أنـهمُ ملوكٌ مُفتّحَةٌ عيونـُهُمُ نـيَامُ[1]

١- المصدر السابق حـ ٤ ص ٦٩ ، ٧٠ .

وهكــذا يقارن المتنبى بين نفسه وبين ملوك هذا العصر فقد وهبه الله نفساً أبية وقلباً لا تستهويه الشهوات ولا يلهبه السُّكر كحال هذه الفئة القليلة التى ابتلى بها المسلمون ويأسف الشاعر لقصر الأعمار فى زمنه فــلو كــان العمــر طويلا لاستطاع خلال هذا العمر المديد أن يدرك أغراضــه ولكــن أنَّى له ذلك ومدة العمر قليلة فهى كهبة اللئام ضئيلة حقيــرة وقدا ابتلى الشاعر بدهر أهله صغار القدر والهمم ولكنهم غلاظ الأبــدان ويتنصــل الشاعر من أولئك الصغار بأنه ليس منهم حتى ولو عــاش بيــنهم بل هو فوقهم مثل الذهب مقامه فى التراب ومع ذلك فما أوسع الفرق بين قيمة هذا وذاك وما أجمل التشبيه الذى يأتى به المتنبى ليطلعــنا عــلى حقيقــة هؤلاء الملوك فإنهم أرانب إلاَّ أنهم ملكوا رقاب الــناس. ويستشهد شارح الديوان بقول أبى الفتح :" المعهود فى مثل هذا أن يقــال : هم ملوك إلاّ أنهم فى صورة الأرانب فتزايد وعكس الكلام مــبالغة فجعل الأرانب حقيقة لهم .والملوك مستعارا فيهم وهذه عادة له يخــتص بهــا ثــم قــال : هم وإن تفتحت عيونهم نيام من حيث الغفلة كالأرانب نيام مفتحة الأعين "[1] .

ويستطرد المتنبي فى وصف هؤلاء القوم ويتناول فى حديثه عنهم أجسامهم الضخمة ونفوسهم التى تجبن عن خوض المعارك ولقاء العدو. ويقول أبو الطيب واصفا إياهم :

بأجسامٍ يَحِرُّ القَتْلُ فِيهَا   ومــا أقْــرانُها إلا الطَّعــامُ

١- ديوان المتنبى بشرح العكبرى جـ ٤ حاشية ص ٧٠

وخيلٍ لا يخرُّ لها طعينٌ　　كـأن قـنا فوارسـها ثمامُ
وشِبْهُ الشئ مُنْجذِبٌ إليه　　وأشـبَهُنا بدنيانـا الطَّغـامُ
ولوْ لمْ يعلُ إلا ذو مَحلٍ　　تعالَى الجَيْشُ وانحطَّ القَتامُ
ولو لمْ يرعَ إلا مستَحِقٌ　　لرتْبَتِـه أسامَـهُمُ المسام(1)

فالمتنبى يصور شغل هؤلاء القوم الشاغل إنه طعامهم فحسب وهم مـن كثرة الأكل يتخمون ويموتون وما قاتلهم إلاّ الطعام أما خيولهم فلا تـلاقى عـدواً ولا تبرح مواطنها فلذلك لا ترى لخيولهم طعيناً قد خر صريعا فى يوم قتال وكيف هذا وهم جبناء عند اللقاء .

ثـم يذكر المتنبى أن هذه الدنيا خسيسة ولذلك ألفت هؤلاء الملوك وانجذبـوا هـم إليهـا لأنهم أشكالها والشكل إلى الشكل أميل ثم يسوق المتنـبى حكمته التى يقول : إن العلو لا يدل على رفعة ولو كان كذلك لكـان الغـبار سافلا والجيش عاليا . ويقول . ورعيّه هؤلاء القوم أحق وأولى بالإمارة منهم هذا لو كانت الإمارة بالاستحقاق .

ويستمر الشاعر فى تَحَسره من تملك هؤلاء الصغار للأمور ومن اسـتمتاعهم بكـل شئ فى أرض وهبها الله خيرات كثيرة ونعم عديدة . فيقول :

ومـا كـلّ بمعـذورٍ بـبُخلٍ　　ولا كُـلٌّ عـلَى بخلٍ يلامُ
ولـمْ أرَ مثلَ جِيرانى ومثلى　　لمثـلى عـنْد مِثْلِهمُ مقامُ

---

١ - المصدر السابق ج٤ ص٧١ ، ٧٢.

بأرضٍ ما اشتَهَيْتُ رأيتُ فِيها   فــليسَ يفُوتُهــا إلا كِرامُ
فهلَّا كان نقصُ الأهلِ فيـَـها   وكان لأهلها فِيها التَّــمَامُ(١)

حكمـــة من حكم المتنبى يتردد صداها فى كل زمان ومكان يعلن فيهــا الشاعر أن من ولدته الكرام لا يغدر فى بخله أما الذى ولدته اللئام فـــلا يلومه أحد إذا بخل لأنه لم يتعلم من أهله إلا البخل ولم ير فى آبائه جودا ولا سخاءً ثم يعود الشاعر ليقارن بين نفسه وبين هذه الفئة الضالة لائماً نفسه على قبولها الحياة بجوار هؤلاء فيعيشون بأرض فيها خيرات ونعـــم ومـــع ذلك لا يجودون بشئ ، إن هذه الأرض الطيبة مفتقرة إلى كـــرام قد تعوَّدوا الكرم والجود من آبائهم وذويهم ، ثم يقول متحسرا : هـــلاَّ كان أهل هذه الأرض أقلّ مما هم عليه من العدد وكان من الكرام فيها قوم ؟

إن هـــذه الأخـــلاق الدنيئة لملوك هذا العصر هى التى أشعلت نار الـــثورة فى نفـــس المتنـــبى عليهم وعلى العصر كله ، يقول الأستاذ / محمود شاكر فى ذلك :

" وكـــانت أخلاق الأمة قد اتضعت وفشلت بما تداخلها من أخلاط الأمـــم الذيـــن لا أصـــل لهم يرجعون إليه ولا خلق عندهم يستذمون به وفســـدت العامة من أهل المدن فساداً كبيراً واضطربت فى أيدى الناس حبال الأخلاق وصاروا لا يقيسون الناس إلا بمقياس الظاهر ولا يزنونهم إلا بميـــزان المـــال فبطلت موازين الرجال التى يوزنون بها من العقل

١- المصدر السابق ج ص٧٣.

والحكمة ، والعلم والرجولة وكرم العنصر ، فكان نظر الفتى (يقصد المتنبى) إلى هذا مما ألقى الحطب على النار فى صدره فبغضت إليه سفساف الأخلاق وتعلق بمعاليها وزيّن فى قلبه أن يكون الثائر الذى يردّ هذا الإهمال والهمج إلى مَرَدّ ، ويأوى بهم إلى مأوى ويقوم عليهم قيام الرّاعى حتى يخلصوا من الشر ، ويستمسكوا بالعروة الوثقى ويفيئوا إلى الخلق الكريم الذى لا يبخس الناس حقهم ولا يظلمهم ولا يدنيهم بل يعدل بينهم بالقسط ويرفعهم عن الدنيّة ويجعلهم قوة مستحكمة تردُّ عدوان العادى وبغى الباغى ليصلوا بذلك إلى المجد والسلطان[1]

لقد يئس أبو الطيب من صلاح الناس فى هذا الزمن الذى عاصره فصار يخالقهم بمثل أخلاقهم ، ويجاريهم فى أحوالهم ، ويداهنهم كما يداهنونه ، يقول المتنبى والحسرة والألم يعتصران قلبه :

فلمّا صارَ وُدُّ الناسِ خِبّاً ... جَزيتُ على ابتِسامٍ بابتِسامِ
وصرتُ أشكُّ فيمن أصطفيه ... لعِلْمي أنّهُ بعضُ الأنامِ
يحبُّ العاقلونَ على التّصافي ... وحبُّ الجاهلين على الوَسَامِ
وآنَفُ مِنْ أخي لأبي وأُمّي ... إذا ما لَمْ أجِدْهُ مِنَ الكِرامِ
أرَى الأجدادَ تغلبُها كثيراً ... على الأولادِ أخلاقُ اللّئامِ
ولستُ بقانِعٍ مِنْ كلِّ فضلٍ ... بأنْ أُعْزَى إلى جَدٍّ هُمَامِ
عجبْتُ لمَنْ له قَدٌّ وحَدٌّ ... ويَنْبُو نَبْوَةَ القَضِمِ الكَهَامِ
ومن يَجِدِ الطريقَ إلى المعالي ... فلا يَذَرُ المَطِيَّ بلا سَنَامِ

١- المتنبىَ لمحمود محمد شاكر ، مطبعة المدنى بالقاهرة ١٩٧٦م ، السفر الأول ، ص ٦٨ .

ولـمْ أرَ فى عيوبِ الناسِ شيئًا　　كـنقصِ القـادرين علَى التَّمام[1]

وإذا كـان أبو الطيب قد نظم هذه الأبيات وهو فى مصر وبعد أن ألمـت بـه الحُمَّى ، فلقد وجد الناس فى مصر أشباه الناس فى العراق والشام فالحاكم فى مصر عبد أسود لئيم لا يرتد إلى أصل كريم أو محتد شـريف أو منبت عريق ، كذلك كان هذا العبد الأسود غير كريم وغير مقدِّر للأدب وأهله وأنى له ذلك وهو ليس بالعربى الذى تأخذه الأريحية عـند سماع الأدب ، ولقد رأى المتبنى رعِّية خاضعة خانعة ذليلة قبلت حكـم ذلك العبد وارتضته فيئس الشاعر من صلاح هؤلاء الحكام وتلك الرعِّية فاضطر إلى أن يجارى الناس فى أحوالهم . يبتسم لمن يبتسم له حـتى ولو لم يكن من أحبائه وأصبح الشاعر يشك حتى فى المصطفين من أصحابه لأنهم من هذه الفئة التى طبعت أخلاقها على اللؤم والخداع ويسـوق المتبنى حكمته البالغة التى تتضمن نظرته العميقة فى الحياة . هـذه النظرة التى ترى أن الجاهلين من البشر أصبحوا يزنون كل شئ بميزان الوجاهة والوسامة ولم يعد هناك من يحب الناس ودافعه إلى ذلك الحب الصفاء والنقاء . لقد أصبح الشاعر يأنف من البخلاء حتى أصبح يـأنف من أخيه إذا سيطر عليه البخل والجشع ويعجب الشاعر من هذا المـتحول الخطيـر الـذى تحول إليه الناس فى هذا الزمن ولم يحفظهم مجدهم القديم وأصلهم العريق وتاريخهم التليد فلقد سيطرت عليهم أخلاق اللـئام بالـرغم من كرم أصلهم وأصبح الرجل منهم له حد السيف وقدُّ

١–ديوان المتبنى بشرح العكبرى ، جـ ٤ ، ص ١٤٤ – ١٤٥

الـــرجال لكـــنه خنوع ذليل لا ينفذ فى الأمور نفاذ السيف الماضى وإن الطريق إلى العلياء مفتوحة أمامهم لكن أحداً لا يقطعها ولا يكلف مطاياه عناء السفر فى هذا الطريق ، إن العيب كل العيب – فى نظر المتنبى – أن يكون الإنسان قادرا على التمام ثم يتقاعس عنه ويتراجع عن البلوغ إلى درجـــته ، إن مثل هذا القادر لا عذر له فى ترك الكمال إذا ما قدر عـــليه ثم تركه ، وإن العيب ألزم له لبلوغ ذلك الكمال وتلك الدرجة من العـــلو والســـمو والـــرفعة ، والمتنبى يرى أن من العار أن يؤمّر على المســـلمين عـــبد أســـود يخضع له المسلمون فى ذلة ومهانة ، ويحاول المتنبى أن يحرض المسلمين على قتل ذلك العبد الذى ليس من حقه أن يتحكم فى رقابهم ، يقول المتنبى فى قصيدة يهجو بها كافوراً :

ســـاداتُ كلّ أناسٍ من نفوسِهمُ ... وســـادَةُ المســـلمين الأعْـــبُدُ القزمُ[1]

أغايةَ الدين أن تُحفُوا شواربَكم ... يـــا أمـــةً ضـــحِكت من جهلها الأممُ

ألا فـــتًى يـــوردُ الهندىَّ هامتَه ... كيمَـــا تزولُ شكوكُ الناسِ والتُّهمُ[2]

ويقـــول المتبـــنى فى موضع آخر يهجو كافوراً ويتحسر لا على مصـــر وحدها التى ابتليت بحاكم مثل كافور بل يتحسر على الدنيا كلها

١– القـــزم / الدنـــاءة – الـــلؤم – القصر . رذال للواحد والجمع والذكر والأنثى (لأنه مصدر) يقال (هؤلاء قوم قزم وما فيهم كرم) وقد يثنى ويجمع ويؤنث فيقال : رجل قـــزم ورجلان قزمان وامرأة قزم ورجال قزمْ وأقزام وقزامى ونساء قزمات (المنجد فى الـــلغة العربية الطبعة الثانية والعشرون ، دار المشرق ، بيروت ص ٦٢٧ مادة " قزم "

٢–ديوان المتنبى ، جـــ ٤ ، ص ١٥٠ ، ١٥١

الـــتى نضب فيها الكرم واختلطت الأنساب ما بين عبيد وموالى وعرب وتشـــابه هـــؤلاء وأولئك يقول المتنبى ونبرة الحزن ظاهرة فى ألفاظه وتراكيبه .

أمَــا فى هــذِهِ الدنيَــا كريمٌ ... تــزولُ بـــه عن القلبِ الهمومُ
أمَــا فى هــذه الدنيَــا مكانٌ ... يُســَـرُّ بأهلِــه الجــارُ المُقيمُ
تشــابَهتِ الــبهائمُ والعِــبِدّى ... علينــا والمـــوالىَ والصَّـــميمُ
ومـــا أدْرِى أذا داءٌ حديــثٌ ... أصــابَ الــناسَ أم داءٌ قديمُ
حصَلتُ بأرض مصرَ على عبيدٍ ... كــأنَّ الحــرَّ بيــنَهمُ يَــتيمُ
كــأنَّ الأســوَدَ اللاّبيَّ فيهمْ(٢) ... غــرابٌ حوْ لهُ رَخــمٌ وبومُ
أخــذتُ بمَدْحِــهِ فرأيتُ لهوًا ... مقــالِىَ للأحيْمِــقِ يــا حليمُ
ولمَّــا أنْ هجــوتُ رأيتُ عِيًا ... مقــالِى لابْــنِ آوىَ يــا لئيمُ
فهلْ من عاذِرٍ فى ذَا وفى ذَا ... فمدفــوعٌ إلى السُّقم السَّــقيمُ
إذا أتَـتِ الإســاءةُ مِـنْ لئيمٍ ... ولــمْ ألُم المُسيئَ فمَنْ ألومُ(١)

وهكـــذا ضاقت الدنيا فى عينى المتنبى فإذا ما أدار بصره فى كل مكـــان وجد حكاما ما كان لهم أن يحكموا ووجد حياة قد فسدت وانقلبت فيهـــا الموازيـــن واضطربت المقاييس ففى العراق فساد استشرى وفى الشام مثيله وفى مصر أكبر من هذا وذاك.

١- اللاّبى : منسوب إلى اللاّبة : وهى أرض ذات حجارة سود وجمع اللابة لوب ولاب .

٢- ديوان المتنبى بشرح العكبرى ، جـــ ٤ ، ص ١٥١ ، ١٥٢

والمتنبى لا يمل من ذكر أولئك اللئام الجاهلين ولا يكل فها هو ذا فى قصـــيدة أخـــرى يدور حول هذا المعانى ذاتها فيذكر أن الزمن عدا عـــلى الفضلاء والكرماء فأصابتهم نوائبه ونكباته فى الوقت الذى فسح الطريق لغيرهم ممن يشبهون البهائم فى قلة عقولهم .

يقول المتنبى :

أفاضلُ الناس أغراضٌ لذا الزمنِ ... يخـــلوُ من الهَمِّ أخلاهُمْ من الفطنِ

وإنّمَـــا نحـــنُ فى جيـــلٍ سواسية ... شـــرٌّ على الحرِّ من سُقمٍ على بدنِ

حولـــي بكـــلِّ مكـــانٍ منهمُ خلقٌ ... تُخْطى إذا جئتَ فى استفهامها بِمَنِ

لا أقْـتَرى[أ] بلداً إلا على غَرَرٍ[ب] ... ولا أمُــرُّ بخَـــلْقٍ غيـــرِ مضْطَغنِ

ولا أعاشـــرُ مـــنْ أملاكهـــمْ أحدًا ... إلا أحـــقَّ بضربِ الرأسِ من وَثَنِ

إنى لأعذرُهُـــمْ ممّـــا أعـــنِّفهمُ ... حـــتى أعنِّفَ نفسي فيهمُ وأَنَى[جـ]

فقـــرُ الجَهُـــولِ بلا عقلٍ إلى أدبٍ ... فقرُ الحمارِ بلا رأسٍ إلى رَسَنِ[1]

وهكـــذا صور لنا المتنبى جانبا من هذه الحياة القاسية التى عاشها الـــناس فى القـــرن الـــرابع الهجرى ملوك لا همَّ لهم إلا أنفسهم وفساد استشرى وانتشر فى كل مكان حتى عمَّ مدن الخلافة الإسلامية كلها من

---

١ - ديوان المتنبى بشرح العكبرى ، جـ ٤ ، ص ٢٠٩ - ٢١١

أ- لا أقـترى : لا أتتـبع (من قروت المكان واستقربته وقريته : أى تتبعته (المنجد فى اللغة ، ص ٦٢٦ ، مادة " قرو "

ب - غرر : خُطر

جـ - أنى : أفتر من الونى

أقصـــاها إلى أقصاها وإذا كان المتنبى قد عاش أوائل هذا القرن وكانت هـــذه هى حـــال الـــناس فى أوائل القرن الرابع الهجرى فإن أبا العلاء المعرى قد عاش أواخر ذلك القرن وأوائل القرن الخامس وكانت الحياة لا تزال كما هى لم يتغير فيها شئ فمجالس اللهو والخمر والعبث تنتشر فى كـــل مكـــان والترف والنعيم يظل فئة قليلة من الناس والمحرومون كثر، لا عدالة ولا توازن بين طبقات الشعب آنذاك وذلك دليل قاطع على أن الحياة الاجتماعية قد فسدت فسادا بالغا طوال القرن الرابع الهجرى ، يقــول أســـتاذنا د . يســـرى ســـلامة : " شهد القرنان الرابع والخامس الهجريان خللا اجتماعيا واضحا يتمثل فى سوء توزيع الثروة بين عباد الله واستئثار الخلفاء وأمراء الجيوش بالضياع والثروات الطائلة ينفقونها عـــلى إمائهم وعبيدهم وخمورهم وزينتهم ويضنون بالفلس الواحد على المشروعات العمرانية أو تقوية الجيوش " [١]

هـــذا الخـــلل الـــذى أصاب الحياة الاجتماعية آنذاك أفزع مصلحا اجتماعيا كأبى العلاء المعرى فبدأ يلقى بنصائحه التى بناها على محاربة كـــل مـــا من شأنه إفساد الحياة وليس هناك شئ يفسد أمر الناس فى أى مجتمع من المجتمعات مثل النساء والخمر . وهذا ما رآه أبو العلاء وقد شـــاهد مجالس الخمر واللهو والطرب والغناء تنتشر فى كل مكان فأخذ يحـــذر ما وسعه التحذير من الانغماس فى هذه الشهوات والجرى وراء النســـاء ولقد وقف أبو العلاء من المرأة موقفا معاديا ولست أشك فى أن

١- النقد الاجتماعى فى آثار أبى العلاء المعرى ، د . يسرى سلامة دار المعارف بمصر ، ١٩٧١ ،ص ٢٦

الذى دفعه إلى هذا الموقف إنما هو سوء الحياة الاجتماعية آنذاك ، يقول أبو العلاء ناصحا :

لا تتبعن الغانيات مماشيا	إن الغوانى جمة تبعاتها
نرها وتلك نصيحة معروفة	عظمت منافعها وقل دعاتها
أوقات عاجلة كأن مضيها	ومض البروق خواطفا لمعاتها
وإذا رجعت إلى النهى فذوا	هب الأيام غير مؤمل رجعاتها[1]

فأبو العلاء يرى أن أوقات التلهى بالنساء قليلة كأنها ومض البروق وأن عمر الإنسان إذا مضى فلن يعود والعاقل من يعمل لما بعد الموت .

ولأبى العلاء قصيدة يحذر فيها من التلهى بالزواج يتخيل فيها أما توصى ولدها بالابتعاد عن الزواج ما استطاع إلى ذلك من سبيل وليتفرغ للجهاد وتعلم فنون القتال وضروبه فهذا أجدى له وأنفع من أن ينساق وراء الدوالف اللآتى يدلفن بين الخاطب ومن يريد خطبتها للتأليف بينهما وعلى لسان تلك الأم يصور أبو العلاء أولئك الخادعات اللاتى يصورن القبيح حسنا . يقول أبو العلاء :

١ - ديوان أبىَ العلاء المعرى (شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء) أو منتخبات اللزوميات ، جمع خالد خطاب ، طبع على الحطاب بالاسكندرية ، ص ٣٨ .

عـليك السـابغاتُ فإنَّهـنَّهْ   **يدافعـنَ الصـوارمَ والأسِـنَّهْ**

ومن شَهِدَ الوغَى وعليه درعٌ   **تـلقَّاه بـنفسٍ مطمئـنَّةْ**

وحـبَّاتُ القـلوبِ يكُـنَّ حبًّا   إِذَا دارَتْ رَحَاهـا المرَجحِـنَّةْ (١)

فحُـنَّ إلى المكـارمِ والمعالِي   ولا تُـثْقِلْ مطَـاك بعبءِ حَنَّةْ (٢)

فـلا تُطِـعِ الدوالفَ مرسلاتٍ   فكـمْ أوقعـنَ فى أرضٍ مَجنَّةْ (٣)

يقُـلْنَ فلانـةُ ابـنةَ خيرِ قومٍ   شـفاءٌ لِـلعيون إذا شَـفنَّه (٤)

لهَـا خـدمٌ وأقـرَطةٌ ووشحٌ   وأَسْـورةٌ ثِقَـائلَ إنْ وُزِنَّهْ (٥)

فَـبادرْ أخذَها الخطابَ واحْذَرْ   فَواتَـكَ إنهَّـا عِـلْقَ المضِـنَّةْ

رَزانَ الحِـلْمِ لو رُزِئت سُهيلًا   أو الشِّـعْرَى لما نَهَضَتْ مرنَّةْ

رجَـاحٌ لا تحـدِّثُ جارتَيهَـا   بـنَجْوَى مـن حديـثِك مُستَكِنَّةْ

كـأنَّ رضـابَهَا مسـكٌ شَنِينٌ   عـلَى راحٍ تُخَـالِط مـاءَ شَنَّةْ

فـلا تَسْـتكثِرِ الهَجَمَـاتِ فِيهَا   فإعـراسٌ بتلكَ دخُولُ جَنَّةْ (٦)

إذا قبلْـتَها قابَـلْتَ مِـنْها   أريـجَ الرَّوضِ فى زَهْرٍ مُغنَّةْ

تغَـنَّتْ مِـنْ غِنَى مالٍ وصَبْرٍ   وأمَّـا بالقـريضِ فَـلمْ تُغَـنَّهُ

وليسَـتْ بالمعُـنَّةِ فى جِـدالٍ   وإنْ جدلـت كمَـا جَدَلَ الأعِنَّهْ

أولـئك مـا أتيـنَ بنصحِ خِلٍ   ولادن المـليك ولا تدنَّـهْ

١- المرجحنة : الثقيلة

٢- جنة : زوجه

٣- أرض مجنة : أرض فيها جنّ

٤- شفنه : شفنه شفونا : نظر إليه بمؤخر عينيه (المنجد فى اللغة مادة " شفن"ص ٣٥٩.

٥-خدم : جمع خدمة وهى الخلخال

٦- الهجمات : جمع هجمة وهى العطفة الكثيرة من الإبل .

وقـدْ أمَّـلْنَ أن يـأْخذْنَ يومًا   رشَـاكَ ولـمْ يُقمْنَ بما ضَمِنَّه
ولـو طَاوعْـتهنّ لجئْنَ منْـها   بـأخْتِ الغُول والنّصَفِ الضّفِنّة[١]

وأبـو العـلاء فى هذه القصيدة يؤكد مذهبه ونظرته للحياة القائمة على إيمانه بأن النساء ملهاة للرجال ومضيعة لجلائل الأعمال . ولا شك فى أن رفض أبى العلاء للزواج أمر لا يوافقه عليه أحد وقد حث الدين الإسـلامى نفسـه على الزواج إذا استطاع الإنسان ذلك . أما أن يبتعد الإنسـان عن مواطن الفسق ومراتع الفجور فهذا أمر يجب أن يكون لا فى عصـر أبى العـلاء فحسـب بل فى كل العصور من لدن آدم عليه السلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ولكـن أبا العلاء لا يمل تحذير الرجال من النساء ولا يسأم ترديد نصائحه للرجال بالابتعاد عن النساء ما وسعهم الابتعاد فهن فوارس فتنة وأعـلام غى هدفهن إيقاع الرجال فى حبائلهن ما استطعن إلى ذلك من سـبيل . وأبـو العـلاء يرى أن تعليم المرأة القراءة والكتابة أمر غير مأمون العواقب والأولى لها أن تعكف على مغزلها تصنع ثوبا فهذا أكثر فائدة من عكوفها على القراءة والكتابة لتأخذ العلم على عجوز قد تضلها وتزين لها طريق الشر . يقول أبو العلاء متحدثا عن النساء :

١- شـروح سـقط الزند لأبى العلاء المعرى الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة القسم الثالث ١٣٨٣هـ / ١٩٦٤ م صـ ٢٠٠١ – ٢٠٠٧ والنصف : الكهلة والضفنة : الكثيرة اللحم

فَوارِسُ فِتنةٍ أعلامُ غَيٍ ... لقينكَ بالأساورِ مُعْلماتِ
وشَنَّفنَ المسامعَ قائلاتٍ ... وكلَّمن القلوبَ مكلِّماتِ
فلا ترمُقْ بعينك رائحاتٍ ... إلى حَمّامهنَّ مُكمّماتِ
فما حَفِظ الخَريدَةَ مثلُ بعْلٍ ... تكونُ بِهِ من المُتحرِّماتِ
وحمِّلْ مغازلِ النِّسْوانِ أوْلَى ... بِهِنَّ من اليَراعِ مُقلِّماتِ
ليأخُذْنَ التِّلاوةَ عن عَجوزٍ ... من اللائي فَغَرْنَ مُهتّماتِ
وما عَيْبٌ على الفِتْيانِ لَحْنٌ ... إذا قُلْن المرادَ مُتَرْجِماتِ
وسَاوِ لديكَ أترابَ النَّصارَى ... وعينًا منْ يَهُودَ ومُسلماتِ
فإنَّ الناسَ كلُّهمُ سواءٌ ... وإنْ ذَكَتِ الحُرُوبُ مُضرّماتِ
وأمَّا الخمرُ فهي تزيلُ عقلاً ... فتحت به مَغَالق مُبْهَماتِ
فهذا قولُ مختبرٍ شفيقٍ ... ونصحٌ للحياةِ وللمَمَاتِ[1]

ويقول أبو العلاء فى موضع آخر محذراً منهن أيضاً :

إذا بلَغَ الوليدُ لديك عشْرا ... فلا يَدْخُلْ على الحَرَمِ الوليدُ
فإنْ خالفتنى وأضعتَ نُصْحى ... فأنتَ وإنْ رُزِقْتَ حِجَى بَليدُ
ألا إن النِّسَاءَ حِبَالُ غَيٍ ... بِهِنَّ يُضَيَّعُ الشَّرَفُ التَّليدُ[2]

١- منتخبات اللزوميات ص ٤٠
٢- المصدر السابق ص ٥٥

وهكذا يحذر أبو العلاء من اختلاط الرجال بالنساء حتى ولو كانوا صبيانا فى سن العاشرة وكأن المرأة قد أصبحت فى نظره أول مفسدات المجتمع وهو لا يفتأ يذكر ذلك فى لزومياته . يقول فى موضع أخر :

اشْدُدْ يديكَ بما أقو … لُ فقولُ بعضِ النّاس دُرّ

لا تَدْنُوَنَّ من النّسا … ءِ فإنّ غِبَّ الأرْيِ مُرّ

سلِّ الفؤادَ عن الحيا … ةِ فإنّها شَرٌّ وشُرّ (١)

قدْ نلتَ منْها ما كفا … كَ فما ظَفِرْتَ بما يَسُرّ

وأرى النوائبَ لا تزا … لُ كأنّها سُحُبٌ تُدِرّ

إنْ تنهزمْ خَيْلٌ لها … فحَذارِ منْ خَيْلٍ تَكُرّ

دُهْمًا توافينا السّنو … نُ ولَمْ يكُنْ فيهنّ غُرّ (٢)

هـذه هى نظرة أبى العلاء إلى مفسدات المجتمع . تلك المفسدات الـتى تتمـثل فى النساء والخمر . وقد يظن ظان أن نظرة أبى العلاء للمرأة راجعة لظروف نفسية يعانيها الشاعر نفسه وليس السبب فى ذلك هو فساد المجتمع كما نظن وقد يكون ذلك الرأى جديرا بالنظر لو أن أبا العـلاء كان قد قصر شعره فى المرأة على هذه النظرة ولكننا إذا رجعنا إلى أيـام شـباب الرجل وجدناه قد عاش الحياة الطبيعة كأى إنسان فقد أحـب وتغـزل ونظـر للمرأة نظرة الإنسان الذى وهبه الله نصيبا من الأحاسيس والمشاعر تجاه المرأة بعامة .

١- الشر " بضم الشين : المكروه (المنجد فى اللغة مادة : ضر " ص ٣٨٠) .

٢- منتخبات اللزوميات ص ٧٢ .

يقـــول أبو العلاء فى إحدى قصائد سقط زنده ذاكرا محبو بته التى خفق قلبه بحبها وخفق قلبها بحبه إذ شاركته ذلك الحب النقى الطاهر:

أسـالتْ أَتِيَّ الدمـع فـوقَ أسيلِ ومـالتْ لظـلٍ بالعـراق ظَليلِ [١]

أيـا جـارةَ الـبيتِ الممنَّعِ جارُهُ غـدوتُ ومـنْ لى عِـنْدكمْ بمَقيلِ

لِغيْـرى زَكَاةٌ مِنْ جَمالٍ فإنْ تَكُنْ زَكـاةُ جَمَـالٍ فَاذْكُـرى ابنَ سَبيلِ

وأرسـلتِ طَيْفَـا خـانَ لما بَعثْتِه فـلا تَـثِقِي مـنْ بَعْـدِه بِرَسُـولِ

خيـالٌ أرانـا نفسَـه متجنِّـبًا وقـد زارَ من صَافي الوِدادِ وَصُولِ

نَسيتِ مَكَانَ العقدِ من دَهشِ النَّوَى فعلقْـتِه فى وَجْـنةٍ ومَسِـيلِ

وكُـنْتِ لأَجلِ السنِّ شَمْسَ غُدَيَّةٍ ولكـنَّها للـبَيْنِ شَـمْسَ أَصيلِ [٢]

فأبو العلاء فى هذه الأبيات يبدو عاشقاً قد شفه الوجد والهيام فهو يتحدث عن محبوبته التى فجعها الفراق ولكنها لم تطو ما طوى الشاعر من الصبابة والألم فمالت بعد ذلك الفراق والهجر إلى ظل ظليل تنعم به فى جـوار أهـلها وفى كـنف ذويها فى الوقت الذى بقيت فيه الهموم والأحـزان ملازمة للشاعر . والشاعر يناشد محبوبته أن تتصدق عليه بزكاة جمالها لا زكاة مالها فزكاة المال لغيره وهو فى غنى عنها ولكنه فى حاجة إلى زكاة ذلك الجمال ولاسيما إذا كان ممن يجوز فيهم الزكاة فهـو ابن سبيل كما يقول . وإن طيف المحبوبة ليزور الشاعر فى نومه

١- الخـد الأسـيل : الـذى فيـه طول ونقاء بشرة وهو مشتق من الأسل : نبات رقيق الأغصان.

٢- شروح سقط الزند القسم الثالث من ص ١٠٤٠ - ١٠٤٣ .

ولكـــن هيهات أن ينال الشاعر منه شيئاً فلم يكن سوى مجرد خيال ولا تـــزال ذكـــرى الفـــراق عالقة بذهن الشاعر المفجوع ولا تزال صورة محبوبـــته يـــوم الفراق لاصقة بعقله ماثلة أمام عينيه فهو يذكر قطرات دموعهـــا عـــلى وجنـــتيها وكأنها حبات لؤلؤ علقت فى وجنتيها ومسيل دموعهـــا حيث أنستها دهشة الفراق مكان عقدها . وها هو ذا الشاعر لا يـــزال يـــراها شاحبة اللون تحاكى شمس الأصيل صفرة بعد أن كانت وضيئة الوجه مشرقة الجبين كشمس الضحى .

هـــذا هـــو أبو العلاء بمشاعره وأحاسيسه تجاه محبوبته أيام شبابه وفتوته وقبل أن يولى مفاسد الزمن ومصائب الدهر اهتمامه .

وإذا كـــان أبو العلاء فى قصيدته السابقة لم يصرح باسم محبوبته واكتفى بأن ناداها(بيا جارة البيت الممنع جاره) فهو فى قصيدة أخرى يصرح باسم محبوبته التى كلفته فى حبها ما لا يطيق وبالرغم من هذا فهو لا يسلوها بل يستعذب مرارة ذلك الحب كما يستعذب حلاوته . تلك المحبوبة هى " أمامة" يقول أبو العلاء :

سَـــنَحَ الغـــرابُ لنا فبتُّ أعيفُهُ ... خَبَرًا أمضَّ من الحِمام لَطيفُهُ
زعمتْ غَوادِى الطَّيرِ أنَّ لقاءها ... بَســـلٌ تَـــنكَّر بعدَنا معرُوفُهُ[1]
ولقـــدْ ذكرتُكِ يا"أمامةَ" بَعدمَا ... نَزَل الدليلُ إلى التُّراب يَسُوفُهُ
وَالعيـــسُ تُعْـــلنُ بالحَنينِ إليْكُمُ ... ولُغامُها كالبُرْسِ طَارَ نَديفُهُ[2]

١- بســـل هنا بمعنى حرام وهو من الأضرار يستعمل فى معنى الحرام والحلال (المنجد فى اللغة مادة " بسل ص ٣٨.

٢- البرس : بضم الباء وكسرها : القطن (المنجد فى اللغة مادة " برس " ص ٣٤ .

فنَســيت مــا جَشّمتنيه وطَالما   كلّفتِــنى مَــا ضَــرّنى تكليفهُ
وهَــواكِ عِــنْدِى كالغِــنَاء لأنّه   حَسَــنٌ لَــدىَّ ثقيلهُ وخفيفهُ

وأبـــو العلاء فى غزله هذا يسلك مسلك القدماء فى زجرهم للطير إذا تشـــاءموا بمـــا تحمله إليهم من أخبار محزنة . وهل هناك ما يحزن الحـــبيب أكـــثر من فراق محبوبته لقد فارقت الشاعر محبوبته وجَدّ فى طلبها وأجهد إبله ولكن دون جدوى ، وإنّ مجرد ذكر الشاعر لمحبوبته ينســـيه كـــل همومه وأحزانه فياله من حب خالد يحمله ذلك القلب النقى الكبير .

وإذا كـــانت هـــذه هى حيـــاة الشاعر فى شبابه فما كان موقفه من المـــرأة فى أخـــريات حياتـــه إلا نتاج تلك المفاسد التى عمت المجتمع وصـــبغته بصبغتها فقد أقضت تلك المفاسد مضجع أبى العلاء ورأى أن الـــلهو والمجـــون أصبح سمة للحياة فى عصره فمجالس اللهو والغناء والخمـــر تملأ أرجاء البلاد الإسلامية والخلفاء منغمسون فى شهواتهم والأتراك والفرس قد استبدوا بكل شئ فأبى الرجل إلاّ أن يقف من هذه المفاســـد موقف الناصح المصلح لذلك كان هذا التحول فى حياته نتيجة لهذه المفاسد الاجتماعية .

يقول أستاذنا د. يسرى سلامة " وأغلب الظن أن البداية لموقف أبى العـــلاء من المرأة كانت عندما انصرف الشباب عن حياة الجد والكفاح والســـعى وفـــارقوا دروعهـــم وسيوفهم وتركوا أعراض المسلمات نهبا

لــلغزاة الــروم وأعطوا ظهورهم لآمال أمتهم فيهم واتجهوا إلى المرأة يدفنون بين أحضانها شبابهم الغض"[١]

لقد صور أبو العلاء هذه المفاسد خير تصوير فها هو ذا ينعى على الشــرفاء سقوطهم عبيداً لأهوائهم أسارى لملذاتهم وشهواتهم. يقول أبو العلاء فى ذلك :

وأشْرَفَ من تَرَى فى الأرضِ قَدْراً   يعيــشُ الدَّهــرَ عبدَ فَمٍ وفَرْجِ
وحُــبُّ الأنفُــسِ الدُّنْيَــا غُرورٌ   أقَــامَ الناسَ فى هَرْجٍ وَمَرْجِ
مــتَى كشَّــفْتَ أخــلاقَ البَرَايَا   تَجِدْ مَا شِئْتَ منْ ظُلْمٍ وحَرْجِ
فــإنَّ الأسْــدَ تَتْــبعُها ذِئَــابٌ   وغِرْبَانٌ فَمِنْ عُورٍ وَعُرْجِ [٢]

كذلــك يحزن أبو العلاء وتتألم نفسه حين يرى ملوك هذه الأمة قد انغمســوا فى لهوهم وترفهم بينما شغل أصحاب الأمور بجمع المال لا يأبهون إن كان ذلك من حرام أو حلال . ويقول أبو العلاء مصورا ذلك الفساد الذى استشرى وزاد خطره :

وجــدْتَ الناسَ فى هَرْجٍ وَمرْجِ   غُــواةً بيــنَ مُعتزِلٍ ومُرْجِ [٣]
فشــأنُ مــلُوكهم عَزْفٌ ونَزْفٌ   وأصْــحابُ الأمُورِ جُبَاةُ خَرْجِ
وهَــمُّ زعيمهِــمْ إنْهَــابُ مَــالٍ   حَــرامِ الــنَّهْبِ أوْ إحْلاَلُ فَرْجِ

١- النقد الاجتماعى فى آثار أبى العلاء المعرى د. يسرى سلامة ص ٢٢٤ .

٢- منتخبات اللزوميات ص ٤٥.

٣- مرج : نسبُه إلى المرجئة

رُكوبٌ النعشِ أسرَعُ لابْنِ دَهْرٍ يُرِيدُ الخَيْرَ من قَتَبٍ وَسَرْجِ [١]
أفِي الدُّنْيَــا لَحَافَــا اللهُ حَــقٌّ فَيُطْــلَبُ فى حَنَادِسِها بِسَرْجِ [٢]

وهكذا اختلط حال الناس فى هذا العصر حتى العلماء لم يسلموا فى هــذا العصــر من الفساد فتصارعوا وانقسموا فرقا شتى وأهواء مختلفة وأنفق الحكام أوقاتهم فى مجالس اللهو والطرب لا يولون الناس اهتماما وقــد تــركوا لأتــباعهم من غير العرب الحبل على غاربه يعيثون فى الأرض فســاداً ينهــبون المال باسم الخراج إلى غير ذلك من ظلم فادح ينــتهى بهــتك أعــراض الناس وييأس أبو العلاء من عودة الحق إلى نصــابه فى هــذه الحياة لكنه لا يزال يذكِّر من يخشى الله ويريد الخير لنفسه بأن نهاية الإنسان محتومة ، وأيام عمره معدودة .

ولشد ما يعجب أبو العلاء من أناس عاشوا حياتهم فى نفاق ورياء ومداهــنة تراهم يحملون المسابح فى أيديهم وليس عندهم دين ولا نسك يــتجهون إلى الله بالدعــاء وقلوبهم منشغلة بغيره فهم فى نظر الشاعر كلاب تنبح لا عباد يصلون ويدعون الله : يقول أبو العلاء والحسرة تملأ قلبه لما آل إليه حال الناس فى زمنه .

دَعَــوْا ومَــا فِيهِمُ زَاكٍ ولَا أَحَدٌ يَخْشَــى الإلَهَ فكانُوا أكْلُباً نُبحاً
وهَــلْ أجَــلُّ قَــتيلٍ مِنْ رِجالِهِمُ إذَا تُؤَمِّــلَ إلاَّ مَــا عِزّاً ذُبِحَا
ولَيْــسَ عِــنْدَهُمْ دِيــنٌ ولا نُسُكٌ فَــلَا تَغُرَّكَ أيدٍ تَحْمِلُ السُّبَحَا

١- القتب : الرحل يوضع على البعير (المنجد مادة " قتب : ص ٦٠٨ .
٢- منتخبات اللزوميات ص ٤٥

وكَمْ شيُوخ غدوْا بيضا مفارقُهمْ ... يسبِّحون وباتوا فى الخنا شبحا
لو تعلمُ الأرضُ وَدتْ أنّها صَفِرَتْ ... مِـنْهم فَلَمْ يَر فيهَا ناظرٌ شَبَحَا
أرَى ابنَ آدمَ قَضَّى عيْشَة عَجَبًا ... إنْ لَمْ يَرُحْ خاسراً فيها فما رَبحَا
فإنْ قَدرتَ فلاَ تفعلْ سِوَى حَسَنٍ ... بينَ الأنامِ وَجَانبْ كلَّ ما قَبُحَا [1]

ويختــتم أبــو العلاء أبياته كما تعود دائما بالنصح والإرشاد لكل إنسان يستطيع أنْ يفعل شيئا ألاَّ يفعل إلاَّ الخير وأن يتجنب كل قبيح .

هــذه الحياة المتخمة بالفساد جعلت أبا العلاء يزهد فيها ويرى أن الموت خير للمرء من أن يحيا حياة هذا شأنها . ويقول أبو العلاء:

عَــرفتُ سجايا الدهرِ أمّا شرورُه ... فــنقْدٌ وأمَّــا خيْــرُه فوَعْــودُ
إذَا كَــانَت الدنيَــا كَذَاكَ فَخلّها ... ولَــوْ أنّ كــلَّ الطّالعَاتِ سُعُودُ
ولا يَرْهَبَنَّ الموتَ منْ ظَلَّ راكباً ... فإنَّ انحدَارًا فى التّرابِ صُعُودُ
وكَــمْ أنذرتَــنْا بالسُّيولِ صَوَاعِقٌ ... وكَــمْ خَبَّرتْنا بالغَمامِ رُعُودُ [2]

إن هذه النظرة المتشائمة للحياة عند أبى العلاء كانت نتاجا لما تقع عــليه عيــناه من مفاسد ومفاتن فالخمر تلعب برءوس الشاربين فى كل مكــان ومجالس الفسق والفجور منتشرة هنا وهناك والفتن مستمرة بين الخــلفاء والــوزراء وكل يوم يشهد مهلك دولة وقيام أخرى. يقول أبو العلاء مصورا ذلك الفساد :

١- المصدر السابق ص ٤٨ .

٢- المصدر السابق ص ٥٤ .

حَديثُ فواجِرٍ وشرابُ خمرٍ — وقتلى يطرحون لأمّ عمرٍو
ومَهــلِكُ دولةٍ وقيامُ أخرى — كذاك الدهرُ أمْرٌ بعدَ أمرِ [١]

هــذا هو حال الدولة الإسلامية وهذه هى سمات الحياة الاجتماعية فى عصر عاش فيه أبو العلاء المعرى وكانت عيناه بمثابة الكاميرا التى تسجل كل شئ يقع تحت بصرها لم تكن عينا أبى العلاء كاميرا صامتة بــل كانت كاميرا ناطقة تفضح عيوب الناس وتذيع مفاسدهم . فالأمراء والــوزراء والحكــام ما هم إلاّ ذئاب اصطلحت على افتراس المسلمين المغــلوبين على أمرهم الضائعين بين أهليهم والغرباء عنهم . يقول أبو العلاء فى ذلك :

هــلْ الامــراءُ إلاّ فى مَراءٍ — أو الــوُزراءُ إلاّ أهــلُ وزرِ
ولاةُ العــالمينَ ذِئــابُ خَتْلٍ — تَكــونُ منَ الشّقاء رُعاةَ فِزْرِ [٢]
وإن بَخلتْ عليكَ نجُومُ صِدْقٍ — فَقَــدْ مَطَــرَتْكَ أنــواءُ بِغــزْرِ
حَبَــاةُ مُــرّةٌ وَرَدىً زُعَــافٌ — كأنّــا مِــنْهُ فى مَــدٍّ وجَزْرِ [٣]

ولا يــزال أبــو العلاء متتبعاً سقطات الناس وترديهم فى الرذيلة وتشــبثهم بــالمجون والخلاعة وقد أعدموا عقولهم بإفراطهم فى شرب

١- المصدر السابق ص ٨٧ .

٢- الفــزر : القطيع الصغير من الغنم ما بين العشرة والأربعين (المنجد فى اللغة مادة " فزر " ص ٥٨١.

٣- منتخبات اللزوميات ص ٨٧ .

الخمر وأبانوا عن أفعالهم المنكرة القبيحة دونما حياء أو استتار . يقول أبو العلاء فى ذلك :

أَرَى بَشَرًا عقولُهُم ضِعافٌ ... أزالوها لِتَعدِمَ بالخمـــورِ
أبانُـوا عنْ قبائحَ مُنْكَرَاتٍ ... فَدَعْ ما لا يَبِينُ مِنَ الأمُورِ
وعَاشُوا بالخِداعِ فكلُّ قومٍ ... تُعاشِرُ مِنْ ذِئابٍ أوْ نُمُورِ [١]

إن هؤلاء الخلعاء قد وجدوا من يلتمس لهم العذر فى مجتمع فسدت فيـــه الأخلاق وعصر تفشت فيه الرذيلة وأصبح فاعل المعروف ملاماً بينما فاعل المنكر واجد من يعذره . ولقد بلغ ذلك العصر من الشر مبلغا لا يضاهيه مبلغ كما يقول أبو العلاء :

يَصُونُ الحِجا والبذلُ أعراضَ معشَرٍ ∴ وأينَ يُرَى العِرضُ الذى لَيْسَ يَبذُلُ
وصَـــاحِـــبُ نُكْرِيَاتٍ يُعْذَرُ بيْنَنا ∴ وفَاعِلُ مَعْرُوفٍ يُلامُ ويُـــعْذَلُ
فإنْ يَكُ رِذْلاً عصــــرُنا وأنامُهُ ∴ فَمَا بَعْدُ هذا العصرِ شَرٌّ وأرْذَلُ [٢]

لقد سيطر الشر على أناس ذلك العصر ولو حاول إنسان أن يغربل الناس ليجد من بينهم من ليس له سقطة أو هفوة فلن يبلغ مأربه .

لقد بلغ اليأس بأبى العلاء مبلغه من إصلاح حال الناس فى عصره ولـــن يجدى معهم فى نظره إلا الطوفان أو الطير الأبابيل فهم فى نظره أشد كفراً من قوم نوح أو من أصحاب الفيل . فقد أصبح الناس فى زمن الشـــاعر لا هم لهم إلا إشباع أهوائهم وإرضاء نفوسهم التى لا يرضيها

١- المصدر السابق ص ٨٨

٢-المصدر السابق ص ١٢٠

إلا فعــل المنكرات والانغماس فى الشهوات . يقول أبو العلاء مصوراً ذلك الفساد .

مضَــى الــزّمان ونفــسُ الحيِّ مولعةٌ ... بالشّــرِّ مــنْ قَبْلِ هابيلٍ وقابيلِ
لــوْ غُــرْبِلَ الناسُ كيما يعدموا سَقَطًا ... لمَــا تحصَّــلَ شيءٌ فى الغرابيلِ
هــلْ يــنظُرونَ سوى الطوفانِ يُهلكهمْ ... كمَــا يُقَــالُ أو الطّيرِ الأبابيلِ
ســبْحانَ مــنْ ألهَــمَ الأجْــنَاس كلّهمُ ... أمْــرًا يَقــودُ إلى خَبْلٍ وتَخبيلِ
لحْــظُ العيــونِ وأهــواءُ النفوسِ وَإِهْوَاءُ الشّــفاهِ إلى لَثْمٍ وتَقْبِيلِ [1]

لقــد ضل الناس ضلالاً بعيداً وزادوا ضلالاً بعكوفهم على الخمر يعــبون منها الكؤوس المترعة . لقد بلغوا من الجهل حداً تساووا فيه مع البهائم التى لا تدرك من أمر الحياة شيئا . يقول أبو العلاء فى ذلك .

حِكَــمٌ تــدلُّ عــلى حَكيــمٍ قادرٍ ... مُــتَفرِّدٍ فى عــزِّهِ بكمَــالِ
ثَمِــلَ الأنامُ منَ الضَّلالة وانْتَشوْا ... بالخمْــرِ فاعجَبْ من ثِمالٍ ثِمالِ
لــمْ تَــلْفِ إلاّ جــاهِلاً مــتعاقِلاً ... مُــتجمِّلاً مــنْهُمْ بغيْــرِ جَمَالِ
مــثْلَ البهائمِ أُبهِمتْ عن رُشْدِها ... إلاّ احــتِمالَ ثَقَــائلِ الأحمْالِ [2]

ويدحض أبو العلاء فكرة هدامة سيطرت على عقول الناس آنذاك ولا تــزال تســيطر عــلى عقول بعض المجانين حتى أيامنا هذه ، تلك

١- المصدر السابق ص ١٢٨

٢- المصدر السابق ص ١٣١

الفكــرة مؤداهــا أن الخمر تنسى الإنسان همومه وأحزانه . يدحض أبو العلاء تلك الفكرة بقوله :

يقولُ الناسُ إن الخمرَ تُودِي   بمَا فى الصَّدرِ من هَمٍ قديمِ
ولولاَ أنَّها بالعقـــلِ تُودى   لكُنْتَ أخَا المُدَامةِ والنَّديمِ [١]

هكذا نصح أبو العلاء وأرشد وحارب الفسق والفجور والفساد بكل ما استطاع لكنه بدا فى بعض الأحايين يائسا وقد رأى أن النصح أصبح ثقيلا على الأسماع وأن الأمور صارت إلى القوة الغاشمة فمن ملك القوة اســتطاع أن يفــرض سيطرته ونفوذه على من هو أضعف منه . وكأن الحيــاة أصبحت فى نظر أبى العلاء أشبه بغابة يعيش فيها القوى على حساب الضعيف .

يقول أبو العلاء فى فصوله وغاياته وقد بدا اليأس مسيطرا عليه :

" إذا أصبح النصح ثقيلا ، والمساجد قالا وقيلا ، وصارت الإمارة غلابا ، والتجارة خلابا[٢] فالبيت المحفور ومجاورة القور[٣] خير لك من مشيدات القصور ، والفقير أربح صفقة من ذى التاج"[٤].

١- المصدر السابق ص ١٤٤

٢- خلابا : خداعا

٣- الظباء

٤- الفصــول والغايات فى تمجيد الله والمواعظ لأبى العلاء المعرى ضبطه وفسر غريبه محمــود حســن زنــاتى مــراجعة لجنة إحياء التراث العربى فى دار الآفاق الجديدة منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت ص ٢٥٥.

هذه بعض ملامح الحياة الاجتماعية التى سادت المجتمع الإسلامى فى القرن الرابع الهجرى ، ظلم وفساد وخمر ونساء وخلل عمّ المجتمع وسيطر على الناس بادئاً بالخلفاء أنفسهم ومنتهياً بالفقراء المعوزين . حيـــاة متناقضـــة كما مرّ بنا خير عميم ونعيم مقيم فى ناحية وفقر مدقع وشـــقاء أبدى فى ناحية أخرى يقول د. شوقى ضيف :" وطبيعى أن يعم الـــبؤس والشقاء من جانب بينما يعم النعيم والترف من جانب أخر . بل لقـــد كـــان للشقاء والبؤس أكثر الجوانب فى الحياة العباسية . فالجمهور يعيـــش فى الضـــنك والضيق لا الرقيق منه فحسب الذى كان يعمل فى القصـــور والضـــياع بل أيضاً جمهور الناس من الأحرار وكأنما كانوا جميعا أرقاء فى هذا النظام الذى كفلت فيه أسباب النعيم ووسائل الترف لأقلية محدودة استأثرت لنفسها بطيبات الأرض والرزق وزينة الحياة"[1]

١- العصر العباسى الأول د" شوقى ضيف ص ٥١ .



الباب الثانى

التأثير السياسى

التأثير السياسى

لم يكد يحل القرن الرابع الهجرى بالدولة العباسية إلا وكانت جميع مقاليد الأمور بيد الأتراك لا بيد العرب ، بل كان الخلفاء أنفسهم أدوات فى يد هؤلاء الأتراك يحركونها كيف شاءوا وحيثما أرادوا .

ولقد بدأ الأتراك يتحكمون فى مقدرات الدولة من يوم أن استقدمهم المعتصم وأكثر منهم ليحد بهم من نفوذ الفرس الذين كانوا يتحكمون من قبل فى أعلى المناصب وأكثرها والذين بدأوا يعادون العرب عداءا شديدا بعد أن نكبهم العباسيون نكبات متتالية . يقول د . شوقى ضيف : " وحقا كانت أعلى المناصب وأكثرها فى أيدى الفرس وكان منهم أكثر الوزراء والقــواد غيــر أن العباســيين نكــبوهم نكبات متوالية على نحو ما هو معــروف عن نكبة البرامكة ونكبة بنى سهل ونشب من جراء ذلك عداء شــديد بين الفرس والعرب فالعرب يريدون استرداد مجدهم فى العصر الأمــوى والفــرس لا يكتفون بما لهم من مجد حادث فى الدولة وكأنهم يريدون أن يستعيدوا مجد دولتهم الساسانية القديمة ويمحقوا العرب محقا مما أعد لظهور تيار شعوبى بغيض رافقه تيار إلحاد وزندقة لا يقل عنه عــنفا ولا محاولــة لهدم الإسلام والعروبة جميعا وفى أثناء ذلك كانت الــثورات مضــطرمة فى شرقى الدولة كلما خمدت ثورة اندلعت أخرى وكــان آخرها اندلاعا ثورة بابك الخرمى فى أذربيجان التى ظلت نحو

عشـــرين عامـــا والتى كلفت الدولة كثيرا من الجيوش إلى أن ، سحقها المعتصم وقواده سحقا"[١]

نظـــرا لذلـــك العداء القائم بين العرب والفرس بدأ المعتصم يتجه بتفكيره لاستقدام عنصر جديد يعتمد عليه العرب ضد أعدائهم من الفرس ومـــن غيـــر الفرس إذ أصبحت ثقة العرب فى الفرس غير تامة خاصة وثوراتهـــم ضـــد العرب لا تنقطع ،يقول د . شوقى ضيف : " وقد أخذ المعتصـــم حينـــئذ يفكـــر فى عنصر جديد يعتمد عليه فى حروبه سوى الفـــرس فـــثوراتهم لا تنقطع وأمانيهم فى إحياء مجدهم القومى لا تخمد واســـتظهارهم للشـــعوبية والـــزندقة لا تهدأ ثورته ، وهداه تفكيره إلى الاعـــتماد عـــلى عنصر من الرقيق اشتهر لعصره بالصبر تحت ظلال الرماح مع حذقه بالرمى يمنة ويسرة ومقبلا ومدبرا وهو الرقيق التركى الذى كثر توافده على بغداد والعراق فأخذ يستكثر من شرائه وطلبه"[٢]

وعن اعتناء المعتصم الشديد باقتناء الأتراك والإكثار منهم يحدثنا الســـيوطى فيقول : " ،ذلك أنه اعتنى باقتناء الترك فبعث إلى "سمرقند" و"فرغانة" والنواحى فى شرائهم وبذل فيهم الأموال وألبسهم أنواع الديباج ومناطق الذهب فكانوا يطردون خليهم فى بغداد ويؤذون الناس وضاقت بهـــم البـــلد فاجـــتمع إليه أهل بغداد وقالوا : " إن لم تخرج عنا بجندك

١- العصر العباسى الثانى ، د . شوقى ضيف ، ص ٩ ، ١٠

٢- المرجع السابق ص١٠.

حاربناك . قال : وكيف تحاربوننى ؟ قالوا : بسهام الأسحار . قال : لا طاقة لى بذلك فكان ذلك سبب بنائه " سُرّ من رأى " وتحوله إليها"[١]

هذه العناية التى أولاها المعتصم للأتراك وهذه الرعاية التى منحهم إياها جعلتهم يسيطرون على كل أمر من أمور الخلافة يصرفونه حسب هواهـم ووفق ما تمليه عليه أمزجتهم ، يقول د . أحمد مختار العبادى : "سـيطر الأتراك على الخلافة العباسية منذ عهد المعتصم ، ولم يقتصر نفوذهـم عـلى العاصمة فحسب بل شمل الولايات الإسلامية الأخرى إذ أخـذ الخـلفاء يقطعونهم تلك الولايات مقابل جزية معينة يؤدونها لبيت المـال وقد جرت العادة أن يبقى هؤلاء الولاة الأتراك إلى جوار الخليفة فى العاصـمة بغـداد أو سامراء ويرسلون من ينوب عنهم فى حكم تلك البلاد ثم أخذ خطر هؤلاء الأتراك يستفحل حتى قيل أن الخليفة المعتصم ندم فى أواخر حياته على اصطناع الأتراك "[٢]

ومـات المعتصم وللأتراك نفوذ عظيم وولى الخلافة الواثق بعهد مـن أبيـه المعتصم فكان للأتراك فى عهده نفوذ أعظم مما كان لهم فى عهد أبيه فقد بلغ فى إيثار الواثق لهم أنه استخلف أحدهم على السلطنة .

يقـول السـيوطى : " وفى سنة ثمان وعشرين (يعنى ومائتين) اسـتخلف (أى الواثـق) على السلطنة اشناس التركى وألبسه وشاحين

١- تاريخ الخلفاء للسيوطى ، ص ٣٣٥ ، ٣٣٦

٢-فى تاريخ الدولة العباسية ، د . أحمد مختار العبادى ، مؤسسة الثقافة الجامعية بالاسكندرية ، ص ١٢٢

مجوهـرين وتاجـا مجوهرا وأظن أنه أول خليفة استخلف سلطانا فإن الترك إنما كثروا فى أيام أبيه"[١]

واسـتخلاف أشـناس التركى هذا سلطانا من قبل الواثق قد جعل للأتـراك اليد الطولى فى تصريف أمور الخلافة أكثر من ذى قبل ، ولم تقـف المصيبة عند هذا الحد بل وصلت إلى ما هو أبعد من هذا وأخطر إذ أن الواثـق لـم يتخذ لنفسه ولى عهد من بعده فجعل الأمر بعد موته مـتروكا للأتراك يقررون بأنفسهم من يكون خليفة ومن لا يكون ، يقول د. شوقى ضيف : " ولم يقف تجنى الواثق على الخلفاء من بعده عند هذا الحد فقد ارتكب خطأ خطيراً فى حقهم بانصرفه عن اتخاذ ولى عهد بعده لـلخلافة وسرعان ما استغل قواد الترك إيتاخ وصاحباه "وصيف" "وبغا" الكبير هذه الفرصة حين توفى سنة ٢٣٢ هـ إذ حملوا رجال الدولة على الـبيعة "للمتوكل" وكان ذلك نذير شؤم إذ أصبحت تولية الخلفاء فيما بعد بيـد الـترك وعما قليل سيصبح عزلهم – كما سنرى – بأيديهم وبذلك يتحول إليهم السلطان جميعه "[٢]

ولى المـتوكل الخلافة بعد أن هيأ له الأتراك ذلك وبعد أن حملوا الـناس على البيعة له ولكنه بالرغم من تفضلهم عليه فى تولية الخلافة إلا أنه ظل يتوجس خيفة منهم لأنه يعرف أن الذى ولاه من اليسير عليه أن يقـيله على أقل تقدير بل فى وسعه أيضا أن يضع نهاية له حسب ما

١- تاريخ الخلفاء للسيوطى ، ص ٣٤٠

٢-العصر العباسى الثانى ، د . شوقى ضيف ، ص ١١ ، ١٢

يــتراءى له وهــذا الخوف من الأتراك الذى ملك على المتوكل نفسه قد دفعه إلى حيلة حاول بها أن يحد من نفوذ الأتراك .

لقد رأى المتوكل أن يضرب قواد الترك بعضهم ببعض وأن يوقع بيــنهم العداوة والبغضاء فيتلهى كل واحد منهم بعداوته لصاحبه وبذلك يأمن المتوكل شرهم ، لذا نرى المتوكل وقد أوعز إلى جماعة أن يشيروا على " إيتاخ " بالخروج للحج وينتهز المتوكل هذه الفرصة ليولى وصيفا التركى الحجابة مكان إيتاخ[١]

ولكن ذلك لم يحد من نفوذ الأتراك كما كان يتوقع المتوكل بل زاد ذلك النفوذ لأن المتوكل لم يصنع شيئا سوى أن غير تركيا بتركى فأنى له أن يصلح من شأنهم أو يحد من نفوذهم وكلهم فى الشر سواء .

لذلــك بــدأ المتوكل يفكر فى الابتعاد عن " سامرّاء " معقل الترك وحصنهم وأخذ فى التوجه إلى دمشق عاصمة الخلافة الإسلامية أيام أن كــانت الخلافــة عربية خالصة لم تشبها شائبة من فرس أوترك أو غير ذلك.

يقول السيوطى : " وفى سنة ثلاث وأربعين (يعنى ومائتين) قدم المتوكل دمشق فأعجبته وبنى له القصر وعزم على سكناها فقال يزيد بن محمد المهلبى :

أظُنُّ الشَّامَ تَشْمَتُ بالعراقِ ... إذا عَزَمَ الإمَامُ على الطَّلاقِ

١- تاريخ الرسل والأمم والملوك لمحمد بن جرير الطبرى ت، ٣١٠ هـــ ، الطبعة الرابعة، دار المعارف تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، جـــ ٩ ، ص ١٦٧

فإنْ تَدعِ العِراقَ وساكِنيه   فقد تُبـــلَى المليحةُ بالطَّلاقِ

فبدا له ورجع بعد شهرين أو ثلاثة[١]

ومـا كانت عودته من دمشق إلا نزولا على رغبة الأتراك الذين أبـدوا غضبهم لمفارقته " سامراء " إلى دمشق ، يقول د . شوقى ضيف فى ذلـك : " ودخل المتوكل دمشق عازما على المقام بها ونقل دواوين الخلافـة إليهـا وأمر أن يبنى بها بعض القصور غير أن الترك فطنوا لمأربـه وأنـه يريد الإطاحة بهم فطالبوا برواتبهم وهو سيف سيظلون يشـهرونه عـلى الخـلفاء كـلما أرادوا منهم أمرا أو أرادوا لهم عزلا واضـطر المـتوكل أن يـنزل على إرادتهم وأن يبرح دمشق بعد نحو شهرين وعاودته الفكرة ولكن لا بعيدا بل قريبا شمالى " سامراء " إذ فكر فى انـتقاله إلى "المـاحوزة" عـلى بعد ثلاثة فراسخ منها وأقطع القواد وحواشيه فيها وسماها "الجعفرية" ، وبنى لنفسه فيها قصره " الجعفرى " وقصرا سماه " لؤلؤة " وقصورا أخرى ، وفى أثناء ذلك أخذ يجفو الترك ويجيـل الآراء فى استئصـالهم والاستبدال بهم وكان أول ما صنعه من ذلك أن ضم إلى وزيره عبيد الله بن يحيى بن خاقان اثنى عشر ألفا من العرب"[٢]

ولـم يطل المقام بالمتوكل بعد ذلك وبعد أن وضح للترك أن شكه فيهـم يزداد يوما بعد يوم ، وبدأ الأتراك يسقون المتوكل بالكأس نفسها

١- تاريخ الخلفاء للسيوطى ، ص ٣٤٨ .

٢- العصر العباسى الثانى ، د . شوقى ضيف ، ص ١٢ ، ١٣ (نقلا عن المسعودى مروج الذهب والتنبية والإشراق)

التى كان يسقيهم بها مثلما كان يضربهم بعضهم بعضا ويوقع بينهم بدأوا هم الآخرون يوقعون بينه وبين ابنه المنتصر حتى إذا اطمأنوا من إحكام مؤامـــراتهم وبعـــد أن وضح لهم فساد العلاقة بين الخلافة وابنه ضربوا ضربتهم ونفذوا خطتهم وقضوا على المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان ، يقـــول الســـيوطى : " كان المتوكل بايع بولاية العهد لابنه المنتصر ثم المعتز ثم المؤيد ثم إنه أراد تقديم المعتز لمحبته لأمه فسأل المنتصر أن يـــنزل عن العهد فأبى فكان يحضره مجلس العامة ويحط منزلته ويتهدده ويشـــتمه ويـــتوعده واتفق أن الترك انحرفوا عن المتوكل لأمور فاتفق الأتـــراك مـــع المنتصر على قتل أبيه فدخل عليه خمسة وهو فى جوف الليل فى مجلس لهوه فقتلوه هو ووزيره الفتح بن خاقان وذلك فى خامس شوال سنة سبع وأربعين ومائتين " [١]

اســـتطاع الأتراك بهذه السهولة القضاء على المتوكل رغم حياطته ومحاولـــته أن يـــقى نفسه شرهم منذ أن ولوه الخلافة يقول ابن طباطبا صاحب كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية : " استولى الأتراك منذ قتل المتوكل على المملكة واستضعفوا الخلفاء فكان الخليفة فى يدهم كالأسير إن شاءوا أبقوه وإن شاء خلعوه وإن شاءوا قتلوه"[٢]

قتل المتوكل واعتلى ابنه المنتصر عرش الخلافة بايدى من بيدهم الأمـــر والـــنهى وبعد ولايته خلع أخويه المعتز والمؤيد من ولاية العهد

١- تاريخ الخلفاء للسيوطى ، ص ٣٥٠

٢- الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية لابن طباطبا المعروف بابن الطقطقى، المطبعة الرحمانية بمصر ، ص ١٨١

بإيعاز من الأتراك أنفسهم لكنه بعد توليه الخلافة فطن لدسائس الأتراك وخديعتهم وصار يسبهم ويقول : " هؤلاء قتلة الخلفاء فعملوا على قتله وهموا بذلك ولكنهم لم يفلحوا لأنه كان مهيبا شجاعا فطنا متحرزا فتحيلوا إلى أن دسوا إلى طبيبه "ابن طيفور" ثلاثين ألف دينار فى مرضه فأشار بفصده ثم فصده بريشة مسمومة فمات وقيل بل سم فى كمثراة ، وقيل : مات بالخوانيق ، ولما احتضر قال يا أماه ذهبت فى الدنيا والآخرة عاجلت أبى فعوجلت ، ومات كما يقول السيوطى : " فى خامس ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين (يعنى ومائتين) عن ست وعشرين سنة أو دونها فلم يمتع بالخلافة إلا أشهرا معدودة دون ستة أشهر "[١]

وأيا ما كانت الطريقة التى مات بها المنتصر فقد مات مقتولا بتدبير من الترك قتلة أبيه والذين أتى بهم جده المعتصم ليزداد بهم قوة فكانوا وبالا عليه وعلى أبنائه وأحفاده من بعده بل على الدولة العباسية كلها حكاما ومحكومين .

اجتمع القواد الأتراك كعادتهم بعد مقتل المنتصر ليختاروا ألعوبة جديدة من بعده فوقع اختيارهم على المستعين بالله أبو العباس أحمد بن المعتصم بن الرشيد وقالوا : " متى وليتم أحدا من أولاد المتوكل لا يبقى منا باقية فقالوا : " ما لها إلا أحمد بن المعتصم ولد أستاذنا فبايعوه وله ثمان وعشرون سنة واستمر إلى أول سنة إحدى وخمسين فتنكر له

١-تاريخ الخلفاء للسيوطى ، ص ٣٥٧

الأتراك لما قتل "وصيفا" "وبغا" ونفى "باغرا" التركى الذى فتك بالمتوكل، ولم يكن للمستعين مع "وصيف" "وبغا" أمر حتى قيل فى ذلك :

خَليفةٌ فى قَفَصْ   بينَ وَصيفٍ وبُغَا
يقولُ ما قالا لَهُ   كما تَقولُ البَبَّغَا

ولمـــا تنكر له الأتراك خاف وانحدر من سامرا إلى بغداد فأرسلوا إليـــه يعـــتذرون ويخضعون له ويسألونه الرجوع فامتنع فقصدوا الحبس وأخرجوا المعتز بالله وبايعوه وخلعوا المستعين"[١]

ومـــن ذلـــك يـــبدو مدى تلاعب الأتراك بخلفاء المسلمين يعزلون الواحـــد منهم حينا ثم يولونه ثم يقتلونه ثم يولون من عزلوا من قبل كما رأيـــنا يولون المتوكل ثم يقتلونه ثم يولون ابنه المنتصر ويعزلون أخويه المعتز والمؤيد ثم يستقر رأيهم على قتل المنتصر بعد ذلك ثم يولون عمه المستعين بالله ثم يعزلونه ويولون مكانه المعتز بن المتوكل الذى عزلوه من قبل ثم يدبرون قتل المستعين بعد ذلك .

هكـــذا وكـــأن الخلافة الإسلامية قد أصبحت لعبة من لعب التسلية يتسلى بها الأتراك كلما سئموا تكاليف الحياة .

أصـــبحت الخلافة بعد المستعين خالصة للمعتز الذى ما لبث حين تولاها أن فتك بأخيه المؤيد وسرعان ما ساءت العلاقة بين المعتز وبين الأتـــراك كما ساءت من قبل بينهم وبين كل من ولوه واختاروه بإرادتهم يقول السيوطى : " وكان المعتز مستضعفا مع الأتراك فاتفق أن جماعة

١- المصدر السابق ، ص ٣٥٨

مـــن كبارهم أتوه وقالوا يا أمير المؤمنين أعطنا أرزاقنا لنقتل صالح بن وصـــيف وكـــان المعتز يخاف منه فطلب من أمه مالا لينفقه فيهم فأبت عــليه وشـــحت نفسها ولم يكن بقى فى بيوت المال شئ فاجتمع الأتراك عــلى خــلعه ووافقهم صالح بن وصيف ومحمد بن بغا فلبسوا السلاح وجاءوا إلى دار الخلافة فبعثوا إلى المعتز أن اخرج إلينا فبعث يقول قد شــربت دواء وأنـــا ضعيف فهجم عليه جماعة وجرُّوا برجله وضربوه بالدبـــابيس وأقـــاموه فى الشـــمس فى يـــوم صائف وهم يلطمون وجهه ويقولون اخلع نفسك"[١]

ويستمر السيوطى فى سرد هذه القصة والتى تنتهى بالقضاء على المعـــتز وســـط هـــذه الأحداث المؤسفة التى توضح إلى أى مدى بلغت المهانة والمذلة بالخلافة الإسلامية على يد الأتراك .

وتنتهى قصة المعتز مع الأتراك كما انتهت قبلها قصص كثير من الخــلفاء الذين سبقوه ، والذين تحكم الأتراك فى مصائرهم إلى هذا الحد الذى رأيناه .

تنتهى حياة المعتز هذه النهاية المؤلمة ويولى الأتراك مكانه محمد بن الواثق ويلقب بالمهتدى .

حـــاول المهتدى أن يسير فى الناس سيرة عمر بن عبد العزيز فى زهده فى الدنيا وملذاتها ، يروى السيوطى جانبا من زهده فيقول : " قال الخطيب : لم يزل صائما منذ ولى إلى أن قتل ، وقال هاشم بن القاسم :

١- المصدر السابق ، ص ٣٦٠

كـنت بحضرة المهتدى عشية فى رمضان فوثبت لأنصرف فقال لى : اجــلس . فجلست فتقدم فصلى بنا ثم دعا بالطعام فأحضر طبق خلاف[أ] وعــليه رغيف من الخبز النقى وفيها آنية فيها ملح وخل وزيت فدعانى إلى الأكــل فابتدأت آكل ظاناً أنه سيؤتى بطعام فنظر إلى وقال : ألم تك صائما؟ قلت : بلى . قال : أفلست عازما على الصوم ؟ قلت : كيف لا وهو رمضان ؟ فقال : كل واستوف فليس ههنا من الطعام غير ما ترى. فعجبت ثم قلت : ولم يا أمير المؤمنين وقد أسبغ الله نعمته عليك ؟ فقال: إن الأمر ما وصفت ولكنى فكرت فى أنه كان فى بنى أمية عمر بن عبد العزيــز وكــان من التقلل والتقشف على ما بلغك فغرت علىبنى هاشم فأخذت نفسى بما رأيت"[١]

هذه السياسة التى انتهجها المهتدى لم ترض الأتراك ولم تعجبهم إذ أن المهــتدى بجانب سياسة التقشف التى سار عليها واتخذها دينه كان يحاول الفتك برؤساء الأتراك لما يعلمه عنهم من حب للظلم وعمل على إشــاعة الفوضى فى البلاد ، فقد أطلع ."بكيال التركى" "موسى "بن بغا عــلى كتاب جاءه من المهتدى يأمره فيه بقتل موسى ومفلح " أحد أمراء الأتــراك أيضا " أو أن يمسكهما ويكون هو الأمير على الأتراك كلهم ،

أ – الخلاف (بكسر الخاء) صنف من الصفصاف (المنجد فى اللغة مادة خلف) ص ١٩٣

١– تاريخ الخلفاء ، ص ٣٦١

وأوقـف "بكيـال" "موسى" على هذا الكتاب وقال : إنى لست أمزح بهذا وإنما هو يعمل علينا كلنا"(١)

أقـول إن هـذه السياسـة التى انتهجها المهتدى لم ترض الأتراك فـأجمعوا أمرهم على قتله وقد تم لهم ذلك فى رجب سنة ست وخمسين ومائـتين فكانت مدة خلافته كما يقول السيوطى : " سنة إلا خمسة عشر يوما"(٢)

ويـتولى الخلافة بعد المهتدى المعتمد على الله أحمد بن المتوكل ، ويـتولاها هو الآخر بأيدى الأتراك وإرادتهم ، يقول السيوطى : " ولما قتل المهتدى كان المعتمد محبوسا بالجوسق فأخرجوه وبايعوه"(٣)

كـان المعـتمد محـبا للهو مؤثرا للعب والعبث ومنشغلا بملذاته وشـرابه إلا أن الله قد أتاح له قائدا فذا من أهل بيته هو أخوه " طلحة " الملقب بالموفق والذى استعمله المتعمد بعد توليه الخلافة – على المشرق – ولقـد رد طلحة للخلافة العباسية هيبتها وجلالها بشدته وبأسه وصبره فى القتال وبخاصة مع الزنج الذين دخلوا البصرة وأعمالها وأخربوها"(٤)

اسـتطاع الموفـق بهذه الصرامة وذلك الحزم أن يحد من سلطان الترك الذى استشرى وسيطر على كل كبيرة وصغيرة فى الدولة ، يقول د . شـوقى ضيف : " ويتاح للمعتمد ودولته قائد عظيم من أهل بيته هو

١- المصدر السابق ، ص ٣٦٣
٢- المصدر السابق ، ص ٣٦٣
٣-المصدر السابق ، ص ٣٦٣
٤- المصدر السابق ، ص ٣٦٣

أخوه أبو أحمد طلحة الملقب بالموفق فيقود بنفسه المعارك مع الزنج ومع مــن ثــاروا بإيران ويكتب له الظفر والقضاء على الزنج قضاءا مبرما وبذلك يرد إلى الخلافة العباسية هيبتها ويحنى الأتراك رؤوسهم لها ولا نعود نسمع بفتنة حجاب الخليفة عليه وتدبيرهم لخلعه"(١)

وتظــل أمــور الدولة مستتبة يشوبها بعض الهدوء ويضعف شأن الأتــراك شــيئا مــا كــل ذلك بفضل ما كان للموفق من عزم وحزم ، وصاحبت خلافة المعتمد أحداث جسام ووقعت خلالها معارك عديدة بين المســلمين فالســيوطى يذكــر : " أن ابن طولون مات فى سنة سبعين ومائتين فولى الموفق ابنه أبا العباس أعماله وجهزه إلى مصر فى جنود العــراق وكان خماوريه بن أحمد بن طولون أقام على ولايات أبيه فوقع بينه وبين أبى العباس ابن الموفق وقعة عظيمة بحيث جرت الأرض من الدماء وكان النصر للمصريين "

وفى الســنة ذاتها ظهرت دعوة المهدى عبيد الله بن عبيد جد بنى عبيد خلفاء المصريين الروافض فى اليمن وأقام على ذلك إلى سنة ثمان وســبعين ومائتين فحج تلك السنة واجتمع بقبيلة من كتامة فأعجبهم حاله فصحبهم إلى مصر ورأى منهم طاعة وقوة فصحبهم إلى المغرب فكان ذلك أول شأن المهدى .

وفى ســنة ثمــان وســبعين ومائــتين مات الموفق وفيها ظهرت القرامطة بالكوفة وهم نوع من الملاحدة يدّعون أنه لا غسل من الجنابة

١- العصر العباسى الثانى ، د . شوقى ضيف ، ص ١٥

وأن الخمر حلال ويزيدون فى آذانهم " وأن محمدا بن الحنفية رسول الله " وأن الصـــوم فى السنة يومان يوم النيروز ويوم المهرجان وأن الحج والقبلة إلى بيت المقدس وأشياء أخرى"[١]

وتظـــل الأمـــور سائرة على هذا المنوال خاصة بعد موت الموفق ويضـــعف أمر المعتمد جدا فى سنة تسع وسبعين ومائتين فيجلس مجلسا عاما ويشهد على نفسه أنه خلع ولده المفوض من ولاية العهد وبايع لأبى العـــباس بن الموفق ولقبه بالمعتضد ، ومات المعتمد بعد أشهر من هذه السنة فجأة"[٢]

ولى المعتضد بالله أحمد أبو العباس بن الموفق طلحة الخلافة وكان قـــد حذا حذو أبيه واتخذوه مثالا وقدوة فشابهه حزما وعزما وصرامة ، يصفه السيوطى فيقول : " وكان ملكا شجاعا مهيبا ظاهر الجبروت وافر العقـــل شـــديد الوطأة من أفراد خلفاء بنى العباس وكان يقدم على الأسد وحده لشجاعته وكان قليل الرحمة إذا غضب على قائد أمر بأن يلقى فى حفرة ويطم عليه وكان ذا سياسة عظيمة"[٣]

ويكمـــل الســـيوطى صفاته فيقول : " وكان المعتضد شهما جلدا موصـــوفا بالرجولة وقد لقى الحروب وعرف فضله فقام بالأمر أحسن قيـــام وهابـــه الناس ورهبوه أحسن رهبة وسكنت الفتن فى أيامه لفرط رهبته وكانت أيامه طيبة كثيرة الأمن والرخاء ، وكان قد أسقط المكوس

١- تاريخ الخلفاء للسيوطى ، ص ٣٦٦

٢- المصدر السابق ، ص ٣٦٧

٣- المصدر السابق ، ص ٣٦٨

ونشــر العدل ورفع الظلم عن الرعية وكان يسمى " السفاح الثانى " لأنه جــدد مــلك بــنى العباس وكان قد خلق وضعف وكاد يزول وكان فى اضطراب من وقت قتل المتوكل وفى ذلك يقول ابن الرومى يمدحه :

هَنيــئًا بنى العَبَّاسِ إنَّ إمامَكُمْ ... إمامُ الهُدى والبأسِ والجود أَحْمَدُ
كمَــا بِأَبى العَبَّاسِ أُنْشِئَ مُلْكُكُمْ ... كَـذا بِــأَبِي العَبَّاس أَيْضًا يُجَدَّدُ
إمَــامٌ يظَلُّ الأمسُ يعملُ نحوَهُ ... تَــلهُّفَ مَــلْهوفٍ ويَشْــتاقُه الغدُ

وقال ابن المعتز فيه :

أَمَــا تَــرَى مُــلكَ بَنِى هَاشِمٍ ... عَــادَ عَزِيــزًا بَعْدَمــا ذُلِّــلا
يــا طَالِــبًا لِلمُــلْكِ كُــنْ مِثْلَهُ ... تَسْــتَوْجِب المــلكَ وإلَّا فَــلا [١]

سار المعتضد فى الناس هذه السيرة التى خمدت معها فتنة الأتراك هيبة له ورهبة منه ومات بعد نحو عشر سنوات خلّف فيها الخلافة على حــال أحســن بكثير مما كانت عليه منذ وفاة الواثق كما يقول الأستاذ / أحمد أمين[٢]

وولى الخلافة بعد المعتضد ابنه المكتفى بعهد منه يقول السيوطى : " وسار سيرة جميلة فأحبه الناس ودعوا له " [٣]

١-المصدر السابق ، ٣٦٩
٢- ظهر الإسلام ، جـ ١ ، ص ٢٦
٣- تاريخ الخلفاء ، ص ٣٧٦

ممـــا ســـبق يتضـــح لنا أن القرن الثالث الهجرى قد بدأ وصوت الأتـــراك هو الأعلى وكلمتهم هى الأقوى لكنه شارف على الانتهاء وقد اســـترد العـــرب بعـــض هيبتهم وخفت صوت الأتراك وتصاغروا أمام عزائم صلبة ونفوس قوية تمثلت كما وضح لنا فى الموفق وابنه المعتضد وفى المكـــتفى بالله أبو محمد على بن المعتضد وكان يمكن لهذه السياسة أن تستمر ويطلع القرن الرابع على المسلمين والعرب أكثر هيبة ومنعة لولا أن المكتفى قد اقترف خطأ فاحشا كما يقول د . شوقى ضيف : " إذ ارتضـــى أخاه المقتدر وهو صبى وليا للعهد من بعده وكان حريا به أن يجعل ولاية العهد من بعده فى شخص حصيف من أهل بيته يستطيع أن يقف الترك وقادتهم عند حد من السلطان لا يتجاوزونه " (١)

ويعـــلق الأســـتاذ /أحمـــد أمين على اختيار المقتدر هذا فيقول : "ويظهر أن الأتراك والوزراء سئموا من اختيار الخلفاء القادرين الأكفاء أمـــثال المهـــتدى والمعتضد والمكتفى فأرادوا أن يعدلوا عن هذه السنة ويولـــوا عديم الكفاءة ولذلك طال اجتماعهم وتفكيرهم بعد موت المكتفى وكـــان أول المرشحين للخلافة عبد الله بن المعتز وهو كفء عالم أديب قـــادر فانصـــرفوا عنه إلى المقتدر وهو طفل عاجز فولوه حتى تتم لهم الرياسة"(٢)

ممـــا ســـبق يتضـــح لنا أن المكتفى قد أوصى بولاية العهد لأخيه المقتدر ذلك الصبى الذى كان له من العمر يوم موت أخيه ثلاث عشرة

١- العصر العباسى الثانى ، د . شوقى ضيف ، ص ١٥

٢ – ظهر الإسلام ، ط ، ص ٢٦

ســـنة وأن ذلك الرأى قد وافق هوى فى نفس الأتراك والوزراء فاستقر رأيهم عليه . وتكاد كتب التاريخ تجمع على أن وزير المكتفى العباس بن الحســن قد استشار جماعة من أصحابه فيمن يصلح للخلافة بعد المكتفى بعدمــا ثقــلت عــليه العلة فأشار عليه محمد بن داوود بن الجراح بابن المعتز ووصفه بالعقل والأدب لكن أبا الحسن على بن محمد بن الفرات عــارض هذا الرأى معللا معارضته بأسباب منطقية إذ قال للوزير : " فليــتق الله الوزير ولا ينصِّب إلا من قد عرفه واطَّلع على جميع أحواله ولا ينصّــب بخيلا فيضيق على الناس ويقطع أرزاقهم ولا طمَّاعا فيشره فى أموالهم فيصادرهم ويأخذ أموالهم وأملاكهم ولا قليل الدين فلا يخاف العقوبــة والآثام ويرجو الثواب فيما يفعله ولا يولى من عرف نعمة هذا وبســتان هذا وضيعة هذا وفرس هذا ومن قد لقى الناس ولقوه وعاملوه ويتخيل ويحسب حساب نعم الناس وعرف وجوه دخلهم وخرجهم ، فقال الوزيــر : " صدقت ونصحت فبمن تشير ؟ قال : أصلح الموجود جعفر بــن المعتضــد قــال ويحــك هو صبى . قال ابن الفرات : إلا أنه ابن المعتضد ، ولم نأت برجل كامل يباشر الأمور بنفسه غير محتاج إلينا"[1]

---

١ -الكامل فى التاريخ لابن الأثير ، جـ ٦ ص ١١٩ وينظر كذلك تكملة تاريخ الطبرى لمحمد بن عبد الملك الهمذانى الملحق بذيول تاريخ الطبرى ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ص ١٩١

وهكــذا تــم الأمــر للمقــتدر فبويع بالخلافة بعد أن استقر رأى الطــامعين عليه فولى الخلافة وهو ابن الثالثة عشرة من عمره "ولم يل الخلافة قبله أصغر منه"[١]

وبعــد تــولى ذلك الصبى الخلافة أصيب المسلمون بخلل كبير ، ويحدثــنا ابن كثير عن الخلل الذى أصاب البلاد بعد تولى الخلافة صبى لا يعى من الأمر شيئا ولا يحسن التصرف وأنى له ذلك وهو ابن الثالثة عشرة ، يقول ابن كثير عن المقتدر بعد توليه الخلافة : " ولما جلس فى منصــب الخلافــة صــلى أربــع ركعات ثم سلّم ورفع صوته بالدعاء والاستخارة ثم بايعه الناس بيعة العامة وكتب اسمه على الرقوم وغيرها: "المقــتدر بالله " وكان فى بيت مال الخاصة خمسة عشر ألف ألف دينار وفى بيــت مــال العامــة ستمائة ألف دينار وكانت الجواهر الثمينة فى الحواصــل من لدن بنى أمية وأيام بنى العباس قد تناهى جمعها فمازال يفــرقها فى حظاياه وأصحابه حتى أنفذها ، وهذا حال الصبيان وسفهاء الولاة "[٢]

ونظــرا لصغر سن الخليفة صار الأمر كله إلى أمه التى استعانت ببعض النساء فى تصريف أمور الدولة وأصبحت أمور الخلافة كلها فى أيدى النساء يصرفنها حسب هواهن ، يقول السيوطى : " وفى سنة ست

---

١ –صلة تاريخ الطبرى لعريب بن سعد القرطبى ص ٢٥ / وينظر تكملة تاريخ الطبرى للمهذانى ص ١٩١ وكذلك تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٣٧٨

٢ –البداية والنهاية لابى الفداء الحافظ بن كثير ، ت ٧٧٤هـ ، الطبعة الثانية ١٩٧٧ ، مكتبة المعارف بيروت ، جـ ١١ ، ص ١٠٥

(يعنى وثلاثمائة) فتح مارستان أم المقتدر وكان مبلغ النفقة فيه فى العام سـبعة آلاف دينـار ، وفيهـا صار الأمر والنهى لحرم الخليفة ولنسائه لركاكـته . وآل الأمـر إلى أن أمرت أم المقتدر " بمثل " القهرمانة أن تجـلس للمظالم وتنظر فى رقاع الناس كل جمعة فكانت تجلس وتحضر القضاة والأعيان وتبرز التواقيع وعليها خطها"[١]

يؤيد ذلك ما جاء فى صلة تاريخ الطبرى لعريب بن سعد القرطبى إلا أنه يذكر أن اسم القهرمانة " ثمل"[٢]

ويـروى ابن كثير هذا الخبر فى البداية والنهاية لكنه يذكر أن اسم القهرمانة " ثملى"[٣]

واختلاف المؤرخين فى اسم القهرمانة لا يقدم ولا يؤخر ولا يزيد ولا ينقص من الأمر شيئا بل هو تثبيت لصحة هذا الخبر ، فأيا كان اسم القهـرمانة إلا أن الخبر صحيح وأن أمر الخلافة قد آل إلى النساء حقا وأصبحت النساء الحاكمات الآمرات الناهيات .

إلا أن المستشـرق آدم مـتز يرى فى تحكم أم المقتدر فى الأمور خيـرا إذ أنها استطاعت أن تفوت على المتآمرين ما كانوا يطمعون فيه ويطمحـون إليه وذلك بفضل ما كان لها من قوة ومن حزم ، يقول آدم متز : " ولكن الجماعة المتآمرين أخطأوا فى التقدير فإن أم المقتدر وهى أم ولـد رومية قبضت على زمام الأمر هى وأولياؤها بيد القوة والحزم

---

١ -تاريخ الخلفاء للسيوطى ، ص ٣٨١

٢ -صلة تاريخ الطبرى ، ص ٦٧

٣ - البداية والنهاية لابن كثير ، جـ ١١ ، ص ١٢٩

فكـــانت تولى وتعزل وحالت بين القوم وبين انتهاب ما فى بيت المال ، ومما يدل على قوة عزيمتها وبعد نظرها طريقتها فى العناية بمراقبة ما كان يقرؤه أبناؤها"[١]

ولســت أدرى عــلى أى شـــئ استدل آدم متز فى حكمه على أم المقتدر بالحزم والقوة فى مواجهة الأتراك ، ولست أرى استيلاءها على مقــاليد الأمور هى والمقربات إليها من النساء إلى مؤامرة من مؤامرات الأتــراك حــتى تــبقى الفوضـــى سائدة ويظل الخلل قائما فالأتراك هم أصــحاب الــرأى الأول فى بقاء المقتدر وهم أعلم بمصلحتهم فى ذلك حــتى إننا نرى الوزير العباس بن الحسن يستصغر المقتدر فيعمل على خــلعه ويوافقه جماعة على أن يولوا عبد الله بن المعتز ويحاول المقتدر إرضــاء الوزيــر ويصلح حاله فيتراجع عن ذلك بعد أن دفع له المقتدر أمــوالا أرضـــته لكن الباقين من جماعته يصممون على خلعه فيركبون عــليه وهو يلعب بالأكره فيهرب ويرسل إلى ابن المعتز فيحضر ويبايع بالخلافــة ، يــبايعه القــواد والقضاة والأعيان إلا أن الأتراك المؤيدين للمقتدر يقاتلون فى سبيل عودته أو بالأحرى فى سبيل مصلحتهم ويتسنى لهــم ذلك ويعود المقتدر للخلافة مرة ثانية ويسلم الفقهاء والأمراء الذين

---

١ -الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ص ١٢

خــلعوه إلى يونس الخازن فيقتلهم ويحبس ابن المعتز ثم يخرج بعد ذلك ميتا ويستقيم الأمر للمقتدر"(١)

ويظــل المقــتدر خليفة طالما كان للأتراك خاضعا ويستمر الحال عــلى مــا هو عليه حتى يتعكر صفو العلاقة بين المقتدر وبين مؤنس الخادم فيخرج مؤنس على الخليفة ويعمل على خلعه يقول السيوطى فى ذلــك : " وفى ســنة سبع عشرة (يعنى وثلاثمائة) خرج مؤنس الخادم الملقب بالمظفر على المقتدر لكونه بلغه أنه يريد أن يولى إمرة الأمراء هــارون بــن غــريب مكان مؤنس وركب معه سائر الجيش والأمراء والجنود وجاءوا إلى دار الخلافة فهربت خواص المقتدر وأخرج المقتدر بعــد العشــاء وذلــك فى ليلة رابع عشر المحرم من داره وأمه وخالته وحــرمه ، ونهــب لأمه ستمائة ألف دينار وأشهد عليه بالخلع وأحضر محمــد بــن المعتضــد وبايعــه مؤنس والأمراء ولقبوه " القاهر بالله " وفوضت الوزارة إلى أبى على بن مقلة وذلك يوم السبت وجلس القاهر يــوم الأحد وكتب الوزير عنه إلى البلاد وعمل موكب يوم الاثنين فجاء العســكر يطلــبون رزق الــبيعة ورزق السنة ولم يكن مؤنس حاضرا فارتفعت الأصوات فقتلوا الحاجب ومالوا إلى دار مؤنس يطلبون المقتدر ليــردوه إلى الخلافــة فحمــلوه على أعناقهم من دار مؤنس إلى قصر الخلافــة وأخــذ القاهر فجئ به وهو يبكى ويقول : " الله الله فى نفسى

١ -تاريخ الخلفاء ، ص ٣٧٨ ، ٣٧٩ (وينظر تكملة تاريخ الطبرى ص ١٩٢ ، ١٩٣ ، والكامل فى التاريخ ، جـ ٦ ، ص ١٢١ ، ١٢٢، وتجارب الأمم والملوك لمسكوية نشرة أمدروز – القاهرة ١٩١٤/١٩١٥ ج١ ص ٦-٨.

فاســـتدناه وقـــبّله وقال له : يا أخى أنت والله لا ذنب لك والله لا جرى عـــليك مـــنى سوء أبدا فطب نفسا وسكن الناس وعاد الوزير فكتب إلى الأقاليم بعودة الخليفة إلى الخلافة وبذل المقتدر الأموال فى الجند"[١]

إلى هذا الحد لعب الأتراك بالمقتدر وأمه وأخيه وإلى هذه الدرجة كان الخليفة لعبة فى أيدى الأتراك يبقونه حينا ثم يعزلونه ثم يردونه فأية عزيمة وأية قوة تلك التى كانت لأم المقتدر فى مواجهة الأتراك .

كـــل هـــذا الذى ذكرته إنما يوضح قدرة الأتراك فى تحكمهم فى الخلافـــة وفى تملكهم لكل شئ وفى سيطرتهم على الأمور فيبقون على من كانت مصلحتهم في وجوده ويبعدون من يرون أن مصالحهم قد بدأت تهتز مع بقائه فى الحكم .

يقول الأستاذ / أحمد أمين : " كان المقتدر صبيا فى الثالثة عشرة من عمره لا يعرف من أمور الدنيا شيئا ومع ذلك لقبوه بالمقتدر ! ولما شـــب عكف على لذائذه وتوفر على المغنّين والنساء وترك أمور الدولة لغيـــره وعلى رأسهم مؤنس التركى فبلغت الحال من بله الخليفة وسوء رجاله أقصى حد"[٢]

وهكـــذا يبدو مدى استهتار هؤلاء الأتراك بالخلافة فما كان تلقيبهم للخـــليفة بالمقـــتدر إلا سخرية واستهزاء فكيف يكون مقتدرا وسنه ثلاث عشرة سنة ، وكأنهم أرادوا أن يقولوا لكل من لا يعجبه الأمر . نعم إنه

---

١ –تاريخ الخلفاء ، ص ٣٨٢ ، ٣٨٣ (وينظر الكامل فى التاريخ ، جـــ ٦ ، ص ٢٠٠ ، ٢٠١)

٢ –ظهر الإسلام ، جـــ ١ ، ص٢٩

مقـــتدر بنا وطالما كان فى ركابنا فإن حاول غير ذلك فلن يكون له من القدرة شئ .

وفى خلافـــة المقتدر هذا زادت الثورات اشتعالا فى كل مكان ففى خلافـــته استتب الأمر للمهدى بالمغرب وخرجت المغرب عن أمر بنى العباس تماما فى أيام المقتدر ، يقول السيوطى أحداث سنة ست وتسعين ومائـــتين : " وفيهـــا (أى فى هذه السنة) غلب أمر المهدى بالمغرب وسلم عليه بالإمامة ودعى له بالخلافة وبسط فى الناس العدل والإحسان فانحرفوا إليه وتمهدت له المغرب وعظم ملكه وبنى المهدية وهرب أمير إفريقية زيادة الله بن الأغلب إلى مصر ثم أتى العراق وخرجت المغرب عن أمر بنى العباس من هذا التاريخ "(١)

ولما استقرت الأمور للمهدى بالمغرب وانفصلت المغرب عن أمر بـــنى العـــباس بدأ المهدى يسير جيوشه قاصدا مصر ليضرب الخلافة العباســـية فيهـــا يقـــول الســـيوطى أيضا : " وفيها (أى فى سنة إحدى وثلاثمائة) سار المهدى الفاطمى يريد مصر فى أربعين ألفا من البربر فحال النيل بينه وبينها فرجع إلى الاسكندرية ، وأفسد فيها وقتل ثم رجع فســـار إليه جيش المقتدر إلى برقة وجرت لهم حروب ثم ملك الفاطمى الإسكندرية ، والفيوم من هذا العام ... "

---

١ - تاريخ الخلفاء ص ٣٧٩ (وينظر الكامل فى التاريخ ، جـ ٦ ، ص ١٣٣ وما بعدها) .

ثم يقول السيوطى : " وفى سنة ست وثلاثمائة عاد القائم محمد بن المهدى الفاطمى إلى مصر فأخذ أكثر الصعيد"[١]

وإلى جـــانب ثورة المهدى هذه كانت هناك ثورة أشد خطرا على البلاد تلك هى ثورة القرامطة ، يقول السيوطى : " وفى سنة ست عشرة (يعنى وثلاثمائة) بنى القرمطى[أ] دارا سماها " دار الهجرة " وكان فى هذه السنين قد كثر فساده وأخذه البلاد وفتكه بالمسلمين واشتد الخطب به وتمكـــنت هيبته فى القلوب وكثر أتباعه وبث السرايا وتزلزل له الخليفة وهـــزم جيـــش المقتدر غير مرة وانقطع الحج فى هذه السنين خوفا من القرامطة ونزح أهل مكة عنها [ب]

وقصدت الروم ناحية "خلاط" وأخرجوا المنبر من جامعها وجعلوا الصليب مكانه"[٢]

ولـــم يكتف أبو طاهر القرمطى بذلك ولكنه سار بجيوشه إلى بيت الله الحـــرام فى موسم الحج ليقتل الحجيج فى هذه البقعة المباركة الطيبة يقـــول السيوطى : " وفى هذه السنة (يعنى سنة سبع عشرة وثلاثمائة) ســـيّر المقتدر ركب الحج مع منصور الديلمى فوصلوا إلى مكة سالمين فوافـــاهم يـــوم الـــتروية عدو الله أبو طاهر القرمطى فقتل الحجيج فى المســـجد الحرام قتلا ذريعا وطرح القتلى فى بئر زمزم وضرب الحجر

---

١ -المصدر السابق ص ٣٨٠ ، ٣٨١ (وينظر الكامل فى التاريخ ، جـــ ٦ ، ص ١٦١)

أ - هو أبو طاهر القرمطى

ب - يفصل ابن الأثير هذه الأحداث فى كتابه الكامل ، جـــ ٦ ، ص ١٩١

٢ - تاريخ الخلفاء ، ص ٣٨٢

الأســود بدبــوس فكسره ثم اقتلعه ، وأقام بها أحد عشر يوما ثم رحلوا وبقى الحجر الأسود عندهم أكثر من عشرين سنة ودفع لهم فيه خمسون ألف دينار فأبوا حتى أعيد فى خلافة المطيع"[١]

ويقول السيوطى أيضا : " قال محمد بن الربيع بن سليمان :

" كــنت بمكــة سنة القرامطة فصعد رجل لقلع الميزاب وأنا أراه فعيل صبرى وقلت : يارب ما أحلمك ! فسقط الرجل على دماغه فمات وصعد القرمطى على باب الكعبة وهو يقول :

أنَا باللهِ وباللهِ أنَا   يَخْلُقُ الخَلْقَ وأُفْنِيهِمْ أنَا[٢]

ويحدثنا السيوطى أيضا عن نزول أبى طاهر القرمطى بالكوفة بعد أن فعــل بحجيج بيت الله الحرام ما فعل فيقول : " وفى سنة تسع عشرة (يعــنى وثلاثمائــة) نزل القرمطى الكوفة وخاف أهل بغداد من دخوله إليها فاستغاثوا ورفعوا أصواتهم والمصاحف وسبوا المقتدر"[٣]

هــذه الــثورات التى اشتعلت فى كل بقعة من بقاع الخلافة سواء أكــانت ثــورات سياسية أم كانت ثورات دينية فى ظاهرها سياسية فى باطــنها إنما ترجع كلها لضعف الخليفة فى مواجهتها وعدم قدرته على التحكم فى زمام الأمور وفرض سيطرته وهيبته فى الناس وأنى له ذلك وقــد فرض الأتراك سيطرتهم عليه من ناحية وحجرت عليه أمه ونساء

---

١ - المصدر السابق ، ص ٣٨٣ (وتنظر تفصيلات هذا الحادث فى الكامل ، جـ ٦ ، ص ٢٠٣ - ٢٠٥

٢ -تاريخ الخلفاء ، ص ٣٨٣

٣ -المصدر السابق ، ص ٣٨٤ (وينظر صلة تاريخ الطبرى ، ص ١٣٩

القصر من ناحية أخرى إذ استبدت هؤلاء النسوة بالأمر دونه مستغلات فى ذلك صغر سنه وضعف شخصيته وحبه للهو والعبث .

يقــول الســيوطى عن المقتدر : " كان مؤثرا للشهوات والشراب مــبذرا وكــان النســاء غلبن عليه فأخرج عليهن جميع جواهر الخلافة ونفائســها وأعــطى بعــض حظاياه الدرة اليتيمة ووزنها ثلاثة مثاقيل وأعــطى زيدان القهرمان سبحة جوهر لم ير مثلها وأتلف أموالا كثيرة وكــان فى داره أحــد عشــر ألف غلام خصيان غير الصقالبة والروم والسود"[١]

كــل هذا كان من شأنه أن يضعف من شخص الخليفة أمام المهدى وأمــام القــرامطة وأمــام الروم أيضا الذين استغلوا هذا الضعف وذلك الخــور وبدأوا يعتدون على الثغور القريبة منهم ويخضعون أهلها لهم ، يقــول ابن الأثير فى حوادث سنة سبع عشرة وثلاثمائة وفيها (أى فى هذه السنة) ضعفت الثغور الجزرية عن دفع الروم عنهم منها "ملطية" ، "وميافــارقين" ، و"آمــدوارزن" وغيرها وعزموا على طاعة ملك الروم والتســليم إليه لعجز الخليفة المقتدر بالله عن نصرهم وأرسلوا إلى بغداد يستأذنونه فى التسليم ويذكرون عجزهم ويستمدون العساكر لتمنع عنهم فلم يحصلوا على فائدة فعادوا"[٢]

وهكــذا ظلت أحوال الخلافة الإسلامية فى عهد المقتدر هذا تنحدر مــن ســيئ إلى أســوأ وظل المقتدر معتليا عرش الخلافة حتى أتيحت

---

١ -تاريخ الخلفاء ، ص ٣٨٤

٢ -الكامل فى التاريخ ، جــ ٦ ، ص٢٠٦

لمؤنس الخادم فرصة أخرى فركب على المقتدر فى سنة عشرين وثلاثمائة وكانت نهايته فى هذه المرة .

يقول السيوطى : " وفى سنة عشرين (يعنى وثلاثمائة) ركب مؤنس على المقتدر فكان معظم جند مؤنس من البربر فلما التقى الجمعان رمى بربرى المقتدر بحربة سقط منها إلى الأرض ثم ذبحه بالسيف وشيل رأسه على رمح وسلب ما عليه وبقى مكشوف العورة حتى ستر بالحشيش ثم حفر له بالموضع ودفن وذلك يوم الأربعاء لثلاث بقين من شوال"[١]

ويقول الأستاذ / أحمد أمين عن موت المقتدر وأخيرا بعد حكم فاسد دام نحو خمس وعشرين سنة قتل المقتدر رجل من أصحاب مؤنس أضجعه فذبحه"[٢]

قتل المقتدر وولى الخلافة بعده أخوه القاهر بالله أبو منصور محمد بن المعتضد ، يقول السيوطى فى تاريخه لخلافة القاهر : " لما مات المقتدر أحضر هو ومحمد بن المكتفى فسألوا ابن المكتفى أن يتولى فقال : لا حاجة لى فى ذلك وعمّى هذا أحق به فكلم القاهر فأجاب فبويع ولقب " القاهر بالله " كما لقب به فى سنة سبع عشرة فأول ما فعل أن صادر آل المقتدر وعذبهم وضرب أم المقتدر حتى ماتت فى العذاب"[٣]

---

١ -تاريخ الخلفاء ص ٣٨٤ (وينظر صلة تاريخ الطبرى ، ص ١٥٢ وكذلك الكامل فى التاريخ ، جـ ٦ ، ص ٢٢٠ ، ٢٢١

٢ -ظهر الإسلام جـ ١ ص ٢٩

٣ -تاريخ الخلفاء ، ص ٣٨٦

وابـــن الأثير يذكر فى كامله أن مؤنسا عظم عليه قتل المقتدر فلم يكـــن يبغى ذلك ورأى أن ينصّب بعده ولده أبا العباس أحمد فى الخلافة لأنـــه حســـب مـــا يقول تربيته وهو صبى إلا أن أبا يعقوب إسحاق بن اسماعيل النوبختى اعترض على ذلك الرأى لمؤنس ومازال بمؤنس حتى رده عن رأيه وذكر له أبا منصور محمد بن المعتضد فأجابه مؤنس إلى ذلك ويذكر ابن الأثير قصة تعذيب القاهر لأبناء المقتدر وأمه"[١]

ولـــم يكن حظ القاهر مع الأتراك بأحسن من حظ أخيه المقتدر ولم يمض على توليه الخلافة عام حتى شغب عليه مؤنس وجنوده كعادته إلا أنـــه كـــان يقظـــا حـــذرا فاستطاع أن يذيقهم كأس الموت بيده . يقول السيوطى وفى سنة إحدى وعشرين (ويعنى وثلاثمائة) شغب عليه (أى عـــلى القاهـــر) الجند واتفق مؤنس وابن مقلة وآخرون على خلعه بابن المكـــتفى فـــتحيّل القاهر عليهم إلى أن أمسكهم وذبحهم وطيّن على ابن المكـــتفى بين حائطين وأما ابن مقلة فاختفى فأحرقت داره ونهبت دور المخـــالفين ثم أطلق أرزاق الجند فسكتوا واستقام الأمر للقاهر وعظم فى القـــلوب وزيـــد فى ألقابـــه (المنـــتقم من أعداء الله) ونقش ذلك على السكة"[٢]

---

١ -ينظر الكامل فى التاريخ ، جـــ ٦ ، ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ / وكذلك صلة تاريخ الطبرى ص ١٥٢ - ١٥٦ / وينظر كذلك تكملة تاريخ الطبرى ، ص ٢٧٣ ، ٢٧٤

٢ -تاريخ الخلفاء ، ص ٣٨٦ (وتنظر تكملة تاريخ الطبرى ص ٢٨١ /وكذلك الكامل فى التاريخ جـــ ٦ ، ص ٢٢٩

وقضـــاء القاهر على مؤنس وجماعته لم يضعف من شأن الأتراك شـيئا بـل ظـلت قوتهم تزداد يوما بعد يوم . وصحت عزيمتهم على التخلص من القاهر فقد كان ابن مقلة مختفيا يخشى صولة القاهر ويحذر مـن أن تدور عليه الدائرة فكان يحرض الجند على التخلص من الخليفة وبخاصة بعد أن فتك بإسحاق بن اسماعيل النوبتجي والذى كان قد أشار عـلى مؤنـس بخلافة القاهر وبالفعل تحقق للجند ما تصبوا إليه نفوسهم واسـتطاعوا أن يوحـدوا كلمتهم ويجمعوا صفوفهم ويطيحوا بالخليفة . يقـول السـيوطى : " وفيها (أى فى سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة) تحـرك الجـند عليه (أى على القاهر) لأن ابن مقلة فى اختفائه كان يوحشـهم منه ويقول لهم : " إنه بنى لكم المطامير ليحبسكم وغير ذلك فـأجمعوا عـلى الفتك به فدخلوا عليه بالسيوف فهرب فأدركوه وقبضوا عـليه فى سـادس جمادى الآخرة وبايعوا أبا العباس محمد بن المقتدر ولقـبوه - الراضى بالله - وأشاروا على الراضى بسملة فكحله بمسمار محمى "[1]

وجـاء فى تاريخ الخلفاء للسيوطى أيضا قال محمد الأصبهانى : "كان سبب خلع القاهر سوء سيرته وسفكه الدماء فامتنع من الخلع فسملوا عينيه حتى سالتا على خديه . وقال الصولى : " كان أهوج سفاكا للدماء قـبيح السـيرة كثير التلون والاستحالة مدمن الخمر ولولا جودة حاجبه

---

١ - تاريخ الخلفاء ، ص ٣٨٧، ٣٨٨ (وتنظر تكملة تاريخ الطبرى ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ / وكذلك الكامل فى التاريخ جـ ٦ ، ص ٢٣٦ ، ٢٣٧

"سلامة" لأهلك الحرث والنسل . وكان قد صنع حربة يحملها فلا يتركها حتى يقتل بها إنسانا "[١]

وتنـــتهى الأمـــور بالقاهر إلى أسوأ حال بعد عزله وسمله إذ أتت عليه أيام لم يجد فيها قوت يومه فكان يقف مادا يده للناس طالبا التصدق عليه .

يذكـــر السيوطى عنه : " إنه أقام فى حبسه إلى سنة ثلاث وثلاثين (يعـــنى وثلاثمائة) ثم أطلقوه وأهملوه فوقف يوما بجامع المنصور بين الصـــفوف وعـــليه مبطنة بيضاء فقال : تصدقوا عليه فأنا من قد عرفتم وذلـــك فى أيام المستكفى ليشنع عليه فمنع من الخروج إلى أن مات فى سنة تسع وثلاثين"[٢]

تولى الخلافة الراضى بالله بعد خلع القاهر فلم يكن له من الخلافة إلا الاسم فقط فقد بدأ فى عهده نظام إمرة الأمراء ، يقول الدكتور /أحمد رمضان : " تعتبر الفترة الواقعة بين سنتى ٣٢٤ هجرية ، ٣٣٤ هجرية فترة انفراد الأمراء دون الخليفة بالسلطة وإن كان حال الخلافة العباسية مـــنذ عصرها الثانى يتسم بانحصار السلطة عن خلفاء بنى العباس إلى العناصـــر التركية إلا أن الحال فى هذه الفترة اتخذ شكلا مختلفا ذلك أن منصـــب الخـــليفة أمســـى منصبا شكليا تنحصر أهميته فى الخلافة عن رســـول الله صـــلى الله عـــليه وسلم أما إدارة أمور الدولة فكانت فى يد

---

١ -تاريخ الخلفاء ص ٣٨٨

٢ -المرجع السابق ، ص ٣٩٢

الأمـــراء وقد ظهر نظام إمرة الأمراء فى بلاد فارس التى كانت مناوئة للخلافة العباسية وإن كانت عونا لها فى أول أمرها"(١)

مما يؤيد ذلك ما جاء فى تاريخ الخلفاء للسيوطى حيث يقول وفى ســـنة أربعـــة وعشـــرين (يعنى وثلاثمائة) تغلب محمد بن رائق أمير "واسط" ونواحيها وحكم على البلاد وبطل أمر الوزارة والدووابن وتولى هـــو الجميـــع وصـــارت الأموال تحمل إليه وبطلت بيوت المال وبقى الراضى معه صورة ليس له من الخلافة إلا الاسم"(٢)

ويقول محمد بن عبد الملك الهمذانى صاحب تكملة تاريخ الطبرى فى ذلك أيضا وهو يؤرخ لسنة أربع وعشرين وثلاثمائة : " وأصعد ابن رائـــق إلى بغـــداد فى العشـــرين من ذى الحجة ومعه "بجكم" والأتراك والدَّيـــلم والقرامطة وضرب له الراضى مضربا فى الحلبة ووصل إلى بغـــداد لخمـــس بقيـــن من ذى الحجة ووصل إلى الراضى ومعه بجكم ورؤساء أصحابه وصارت مرتبته فوق الوزير وخلع عليه وصار بالخلع إلى مضـــربه بالحلـــبة وحمـــل إليه من دار السلطان الطعام والشراب والفواكـــه وكـــانت الحجـــرية قد ضربوا الخيم متوكلين بالدار وأمرهم بالانصـــراف فعطـــل أمـــر الوزارة ولم يكن إلى الوزير غير حضور المركب بالسواد والسيف والمنطقة"(٣)

١ -حضارة الدولة العباسية د . أحمد رمضان أحمد ص ٧١

٢ -تاريخ الخلفاء ، ص ٣٩٢

٣ -تكملة تاريخ الطبرى ص ٣٠٤ / وينظر الكامل فى التاريخ ، جـ ٦ ص ٢٥٤

مــنذ ذلك التاريخ بدأ الأمراء يسيطرون على الأقاليم سيطرة تامة لها سيادتها الكاملة بعيدا عن سيطرة الخليفة الذى لم يعد له أمر ولا نهى وهــا هو ذا ابن الأثير يصف الخلافة العباسية فى عصر إمرة الأمراء فيقول : " تغلَّب أصحاب الأطراف وزالت عنهم الطاعة ولم يبق للخليفة غيــر "بغداد" وأعمالها والحكم فى جميعها لابن رائق ليس للخليفة حكم وأمّــا باقى الأطراف فكانت البصرة فى يد ابن رائق وخوزستان فى يد البريدى ، وفارس فى يد عماد الدولة بـن بويه وكرمان فى يد أبى على محمد بن إلياس والرى وأصبهان والجبل فى يد ركن الدولة بن بويه ويد وشــمكير أخى "مرداويج" يتنازعان عليها والموصل وديار بكر ومضر وربيعة فى يد بنى حمدان ومصر والشام فى يد محمد بن طغج والمغرب وإفــريقية فى يــد أبى القاسم القائم بأمر الله بن المهدى العلوى ، وهو الثانى منهم – ويلقب بأمير المؤمنين .

والأندلــس فى يد عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر الأموى وخراســان ومــا وراء النهر فى يد نصر بن أحمد السامانى وطبرستان وجرجان فى يد الديلم والبحرين واليمامة فى يد أبى طاهر القرمطى"[١]

وظــل كــل أميــر من هؤلاء الأمراء يعمل ما وسعه العمل على توســيع رقعة بلاده على حساب الأمراء الآخرين ، بدأ بنو بويه يعملون عــلى الاســتيلاء على أكبر قدر من الأقاليم يقول ابن الأثير فى تأريخه لسنة أربع وعشرين وثلاثمائة : " فى هذه السنة سار أبو الحسن أحمد بن

---

١ – الكامل فى التاريخ جــ ٦ ، ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ (وتنظر تكملة تاريخ الطبرى ص ٣٠٧

بويه الملقب بمعز الدولة إلى كرمان وسبب ذلك أن عماد الدولة بن بويه وأخـــاه ركن الدولة لما تمكّنا من بلاد فارس وبلاد الجبل وبقى أخوهما الأصـــغر أبـــو الحســـن أحمد بغير ولاية يستبد بها رأيا أن يسيّراه إلى كرمان ففعلا ذلك "[١]

وبـــدأت بين هؤلاء الأمراء معارك كثيرة كل يحاول أن تكون له السـيطرة دون الآخـــرين ، فها هو ذا معز الدولة بن بويه يستولى على الأهـــواز بعـــد أن كانت تحت يد "بجكم" ، يقول ابن الأثير مؤرخا لسنة ست وعشرين وثلاثمائة : " وفى هذه السنة سار معز الدولة أبو الحسن أحمد بن بويه إلى الأهواز وتلك البلاد فملكها واستولى عليها وكان سبب ذلك ما ذكرناه من مسير أبى عبد الله البريدى إلى عماد الدولة كما سبق فـــلما وصل إليه أطمعه فى العراق والاستيلاء عليه فسيّر معه أخاه معز الدولـــة إلى الأهواز وترك أبو عبد الله البريدى ولديه أبا الحسن محمدا وأبـــا جعفر الفيّاض عند عماد الدولة بن بويه رهينة وساروا فبلغ الخبر إلى " بجكم " بنزولهم "أرجان" فسار لحربهم فانهزم من بين أيديهم"[٢]

وفى سنة ست وعشرين وثلاثمائة أيضا أقام "بجكم" "بواسط" وعظم شـــأنه بها وخافه محمد بن رائق وحاول الاتصال بأبى عبد الله البريدى طالـــبا منه الصلح على "بجكم" فإذا انهزم "بجكم" تسلم البريدى "واسطا" وضمنها بستمائة ألف دينار فى السنة على أن ينفذ أبو عبد الله عسكرا . وسمع "بجكم" بذلك فخاف واستشار أصحابه فيما يفعله فأشاروا عليه بأن

---

١ – المصدر السابق ، ج، ٦ ، ص ٢٥٥

٢ –المصدر السابق ، جـــ ٦ ، ص ٢٦٣

يبـــتدئ بأبى عبد الله البريدى وألا يكاشف ابن رائق إلا بعد الفراغ من الـــبريدى فجمع عسكره وسار إلى البصرة يريد البريدى وسيّر أبو عبد الله البريدى جيشا عدته عشرة آلاف رجل والتقى الجيشان وكتب النصر لـــبجكم وضعفت نفوس جند البريدى ولم يتبعهم بجكم بل كفّ عنهم وبدأ فى تـــنفيذ حيلته فراسل البريدى ثانى يوم الهزيمة معتذرا له مما جرى وقال له : " أنت بدأت وتعرضت بى وقد عفوت عنك وعن أصحابك ولو تبعـــتهم لغـــرق وقـــتل أكـــثرهم وأنا أصالحك على أن أقلدك "واسطا" وأصـــاهرك وقـــبل الـــبريدى ذلك وتصالح مع "بجكم" وعاد "بجكم" إلى واسط ليأخذ فى التدبير لابن رائق والاستيلاء على الحضرة ببغداد"[١]

وفى الســـنة نفســـها وصلت إلى بجكم كتب ابن مقلة يعرفه أنه قد اســـتقر مـــع الراضى أن يقلده إمرة الأمراء فطمع فى ذلك وكاشف ابن رائـــق ومحـــا نســـبته إليه فقد كان ينتسب إلى ابن رائق فيسمى " بجكم الـــرائقى " وسار من واسط نحو بغداد غرة ذى القعدة واستعد ابن رائق وســـأل الراضـــى أن يكـــتب إلى بجكم يأمره بالعود إلى "واسط" فكتب الراضـــى إليه وسيَّر الكتاب فلما قرأه ألقاه عن يده ورمى به وسار حتى نـــزل شـــرقى نهر " ديالى " وكان أصحاب ابن رائق على غربيه فألقى أصـــحاب بجكـــم نفوســـهم فى المـــاء فانهزم أصحاب ابن رائق وعبر أصـــحاب بجكـــم وساروا إلى بغداد وخرج ابن رائق عنها إلى "عكبرا" ودخـــل بجكم بغداد ثالث عشر ذى القعدة ولقى الراضى من الغد وخلع عـــليه وجعله أمير الأمراء وكتب كتباً عن الراضى إلى القواد الذين مع

---

١ - تنظر أحداث هذه المعارك فى الكامل فى التاريخ جـــ ٦ ، ص ٢٦٤ ، ٢٦٥

ابــن رائق يأمرهم بالرجوع إلى بغداد ففارقوه جميعهم وعادوا فلما رأى ابن رائق ذلك عاد إلى بغداد واستتر ونزل "بجكم" بدار "مؤنس" واستقر أمره ببغداد[١].

ممــا ســبق يتضح إلى أى حد كان الخليفة إمَّعَةَ لا رأى له فتارة يستقر رأيه مع ابن مقلة على أن يجعل بجكماً أميراً للأمراء وتارة أخرى يسأله ابن رائق أن يكتب إلى بجكم بالعود إلى واسط فيكتب وحين يستقر الأمر لبجكم يخضع له الخليفة ويخلع عليه ويجعله أمير الأمراء .

ولقــد بلغ بجكم من السلطة مبلغا عظيما حتى صار يتحكم فى كل أمــر مــن أمــور الخلافة وتم نقش اسمه وصورته على السّكة . يقول الأســتاذ / أحمــد أمين : " وحدّث أبو الحسن العروضى مؤدب الخليفة الراضــى قال: اجتزت فى يوم مهرجان بدجلة بدار بجكم التركى فرأيت مــن الهــرج والمــلاهى واللعب والسرور ما لم أر مثله ثم دخلت إلى الراضى بالله فوجدته خاليا بنفسه قد اعتراه هم فوقفت بين يديه فقال لى : ادن . فدنوت فإذا بيده دينار ودرهم . فى الدينار نحو من مثاقيل وفى الدرهم كذلك عليه صورة " بجكم " شاك فى سلاحه وحوله مكتوب :

" إنَّماَ العِز فَاعلَمْ . للأمِير الْمعظَمْ . سَيِد النَّاسِ بَجكَمُ "

ومــن الجانب الآخر الصورة بعينها جالس كالمفكر المطرق فقال الراضى : أما ترى صنع هذا الإنسان وما تسمو إليه همته وما تحدّث به نفســه فلم أجبه بشىء وأخذت به فى أخبار من مضى من ملوك الفرس

١- المصدر السابق ح٦ ص ٢٦٦ (وينظر تكملة تاريخ الطبرى ص ٣١٦

وغيرها وما كانت تلقى من أتباعها وصبرهم عليهم وحسن سياستهم لذلك حتى تصلح أمورهم وتستقيم أحوالهم فسلا عمّا عرض لنفسه ثم قلت : يمتع الله أمير المؤمنين أن يكون كالمأمون فى هذا الوقت حيث يقول :

صِلِ النُّدْمانَ يومَ المِهْرَجَانِ	بصافٍ مِنْ مُعَتَّقَةِ الدِّنَانِ
بكأسٍ خُسْرُوَانِيٍّ عَتِيقٍ	فَإِنَّ العيدَ عيدٌ خُسْرُوَانِي
وجَنِّبْنِي الزَّبِيبِيِّينَ طُرًّا	فشأنُ ذَوِي الزَّبيبِ خلافُ شَانِي
فأشْرَبُهَا وأَزْعُمُهَا حَرَامًا	وأرْجُو عَفْوَ رَبٍّ ذِى امْتِنَانِ
وَيَشْرَبُهَا وَيَزْعُمُهَا حَلالاً	وتِلْكَ عَلى الشَّقِيِّ خَطِيئَتَانِ

فطرب وأخذته أريحية وقال لى صدقت ، ترك الفرح فى مثل هذا اليوم عجز وأمر بإحضار الجلساء وقعد فى مجلس التاج على دجلة فلم أر يوما كان أحسن منه فى الفرح والسرور"[١] .

وفى سنة سبع وعشرين وثلاثمائة دارت معركة بين "بجكم" ومعه الخليفة الراضى ضد ناصر الدولة بن حمدان لأنه أخر المال الذى عليه من ضمان البلاد التى بيده "[٢].

وظلت أحوال البلاد الإسلامية على هذا الوضع أمراء مستبدون بالأمر دون الخليفة ومعارك دائرة بين هؤلاء الأمراء بعضهم بعضا

١- ظهر الإسلام لأحمد أمين ح١ ص ٣٠ / ٣١ (نقلا عن مروج الذهب للمسعودى)

٢- الكامل فى التاريخ حـ ٦ ص ٢٦٩ (وينظر تكملة تاريخ الطبرى للهمذانى ص ٣١٧)

وأقـــاليم قد تفتتت قوتها بعد أن أنهكتها المعارك المستمرة بين الطامعين وخليفة المسلمين. عاجز كل العجز لا حول له ولا قوة .

ومع ضعف الراضى واستبداد الأمراء وتحكمهم اختلت الأمور فى الـــبلاد الإسلامية اختلالا كبيراً يحدثنا السيوطى عن ذلك فيقول :" اختل الأمر جداً وصارت البلاد بين خارجى قد تغلب عليها أو عامل لا يحمل مــالا وصـــاروا مـــثل ملوك الطوائف ولم يبق بيد الراضى غير بغداد والسواد . ولما ضعف أمر الخلافة فى هذه الأزمان ووهت أركان الدولة العباســية وتغلــبت القرامطة والمبتدعة على الأقاليم قويت همة صاحب الأندلــس الأميــر عبد الرحمن محمد الأموى المردانى وقال : انا أولى الـــناس بالخلافة وتسمّى بأمير المؤمنين الناصر لدين الله واستولى على أكثر الأندلس وكانت له الهيبة الزائدة والجهاد والغزو والسيرة المحمودة، استأصـــل المتغلبين وفتح سبعين حصناً فصار المُسمَّوْن بأمير المؤمنين فى الدنيــا ثلاثـــة : العــباس بــبغداد ، وهـــذا بـــالأندلس ، والمهدى بالقيروان"[1]

ظلت الفتن قائمة بين الأمراء والمعارك دائرة لا تخمد نيرانها فها هـــو ذا ركن الدولة بن بويه يستولى على أصبهان ويملكها بعد معارك ضـــارية مـــع وشـــمكير . وها هو ذا بجكم التركى يستولى على واسط ويجلّى عنها البريدى الذى تركها لبجكم وسار إلى البصرة ، وها هو ذا ابـــن رائق يستولى على الشام ويملك مدينة حمص ثم يسير نحو دمشق فيجـــلّى عـــنها والى الإخشيد ويملكها ويسير منها إلى الرملة فيملكها ثم

١-تاريخ الخلفاء ٣٩٢

يتوجه إلى مصر يريد الديار المصرية فيلقاه الإخشيد محمد بن طغج ويحاربه وينهزم الإخشيد ثم تستعر الحرب بينهما وتنتهى بمقتل أبى نصر بن طغج أخى الإخشيد ثم يتم الصلح بين ابن رائق ومحمد بن طغج الإخشيد يصطلحان على أن تكون الرملة وما وراءها إلى مصر للإخشيد وباقى الشام لمحمد بن رائق ويحمل إليه الإخشيد عن الرملة كل سنة مائة ألف وأربعين ألف دينار"[١].

وتستمر الأمور سائرة على هذا المنوال حتى تحل سنة تسع وعشرين وثلاثمائة ويموت الراضى فى هذه السنة بعلة الاستسقاء يموت عن إثنتين وثلاثين سنة وشهور.[٢]

كما يقول ابن الأثير ومن شعره :

كُلُّ صَفْوٍ إِلَى كَدَرْ ... كُلُّ أَمْنٍ إِلَى حَذَرْ
وَمَصِيرُ الشَّبَابِ لِلْـ ... ـمَوْتِ فِيهِ أَوِ الكِبَرْ
دَرَّ دَرُّ المَشِيبِ مِنْ ... واعِظٍ يُنْذِرِ البَشَرْ
أيُّهَا الآمِلُ الَّذِى ... تَاهَ فى لُجَّةِ الغَرَرْ
أيْنَ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا ... ذَهَبَ العَيْنُ وَالأَثَرْ
سَيَرِدُ المَعَادَ مَنْ ... عُمْرُهُ كُلُّهُ خَطَرْ
رَبِّ إِنِّى ذَخَرْتُ عِنْـ ... ـدَكَ أَرْجُوكَ مُدَّخَرْ

١-تنظر تفصيلات هذه الفتن والمعارك فى الكامل فى التاريخ ص ٢٧٢ - ٢٧٤

٢- فى البداية والنهاية " إحدى وثلاثين سنة وعشرة شهور ح ١١ ص ١٩٦ .

إنَّنى مُؤْمِنٌ بمَا ... بَيَّنَ الْوَحْىُ فى السُّوَرْ
واعْتَرافِى بِتَرْكِ نَفْـ ... ـعى وإيثَارِىَ الضَّرَرْ
ربِّ فاغْفِـرْلِىَ الخَطِيـ ... ـئَةَ يَا خَيْـرَ مَنْ غفَرْ

ولست أرى هذا الشعر للخليفة الراضى إلا ترجمة لحالة الكدر التى كانت تغشاه وبكاء على أمنه الذى لم ينعم به حتى وهو خليفة فقد عاش حياته يحذر خطر الأتراك ويتوقع منهم كل يوم فتنة وخديعة . فها هو ذا فى الثلاثين من عمره حيث يعيش الإنسان زهرة حياته وينعم بريعان شبابه – ها هو ذا يحس وكأن الشيب قد طارده واعظاً ، منذراً ، محذراً منبئاً إياه أن شمس خلافته فى طريقها إلى الأفول . وها هو ذا يتذكر كل من سبقه وكل من أفلت شموس خلافتهم على أيدى هؤلاء الأتراك :

أينَ مَنْ كانَ قبْلَنا ... ذَهَبَ العيْنُ والأثَرْ

فهذا قد خلع وذلك قد قتل أو سمل ولن تكون نهايته هو الأخر إلا واحدة من هذه النهايات المؤلمة .

مات الراضى وخلفه أخوه المتقى لله أبو إسحق إبراهيم بن المقتدر ولم يتغير من الأمر شئ بل ظل الأمر والنهى "لبجكم" كما كان فى عهد الراضى تماما يحدثنا ابن الأثير عن خلافة المتقى وعن سلطان بجكم عند موت الراضى وتولى أخيه المتقى فيقول :" لما مات الراضى بالله بقى الأمر فى الخلافة موقوفا انتظارا لقدوم أبى عبد الله الكوفى كاتب "بجكم" من "واسط" . وكان "بجكم "بها واحتيط على دار الخلافة فورد

كـــتاب بجكـــم مع الكوفى يأمر فيه بأن يجتمع مع أبى القاسم سليمان بن الحق وزير الراضى كل من تقلد الوزارة وأصحاب الدواوين والعلويون والقضاة والعباسيون ووجوه البلد ويشاورهم الكوفى فيمن ينصّب للخلافة ممـــن يرتضـــى مذهـــبه وطريقته . فجمعهم الكوفى واستشارهم فذكر بعضهم إبراهيم بن المقتدر وتفرقوا على هذا ، فلما كان الغد اتفق الناس عـــليه فأحضـــر فى دار الخلافة وبويع له فى العشرين من ربيع الأول وعرضـــت عليه ألقاب فاختار المتقى لله وبايعه الناس كافة وسير الخلع واللواء إلى بجكم بواسط وكان بجكم بعد موت الراضى وقبل استخلاف المـــتقى قـــد أرسل إلى دار الخلافة أخذ فرشاً وآلات يستحسنها وجعل "ســـلامة الطولـــونى" حاجـــبه وأقر سليمان على وزارته وليسَ له من الوزارة إلا اسمها وإنما التدبير كله إلى الكوفى كاتب بجكم "(١)

عن المتقى هذا يحدثنا السيوطى فيقول :" كان كثير الصوم والتعبد ولم يشرب نبيذاً قط وكان يقول : لا أريد نديما غير المصحف ولم يكن لـــه ســـوى الاســـم والـــتدبير لأبى عبد الله أحمد بن على الكوفى كاتب بجكم"(٢) .

ولـــم يمكث بجكم فى إمارة الأمراء طويلا فى عهد المتقى فقد قتل فى السنة نفسها التى تولى فيها المتقى الخلافة. كان قد خرج يتصيد فلقى طائفـــة من الأكراد فاستهان بهم فقاتلوه فضربه رجل منهم فقتله وخلف

١- الكامل فى التاريخ حـــ ٦ ص ٢٧٧ ، ٢٧٨

٢- تاريخ الخلفاء ص ٣٩٤

مــن الأموال والحواصل ما ينيف على ألفى ألفى دينار أخذها المتقى لله كلها[١].

لمــا قتل بجكم طمع أبو عبد الله البريدى فى بغداد وحشد حشوده مــن الديــلم حــتى قوى بهم وعظمت شوكته وبدأ البريدى يحثهم على مطالــبة الخــليفة بالأموال والخليفة يمالئهم حتى عرض عليه الأتراك اســتعدادهم لقتال البريدى وجماعته مقابل أن ينفق الخليفة فيهم الأموال فوافــق المتقى على ذلك وأعطاهم مما كان قد أخذه من مال بجكم إلا أن الــبريدى نجــح فى النهاية من دخول بغداد ولقيه وزير بغداد وقضاتها وكــتابها وأعيانهــا وأنفذ إليه المتقى يهنئه بسلامته وأرسل إليه الطعام وغيــر ذلك وقويت شوكة البريدى ببغداد وأخذ يطالب الخليفة بالأموال فقــد أنفذ البريدى إلى المتقى يطلب منه خمسمائة ألف دينار ليفرقها فى الجــند فامتــنع عــليه فأرسل إليه يتهدده ويذّكره ما جرى على المعتز والمســتعين والمهــتدى وتــرددت الرسل فأنفذ إليه المتقى الأموال التى طلبها.[٢]

وظل البريدى على هذه الحال لا يسأم طلب المال من الخليفة فمرة يطــلب بنفســه ومــرة يحرض الجند على ذلك والخليفة لا يجد مخرجا فيضطر لأن يخضع للبريدى ، ولما وجد الجند أنّ الخليفة يدفع للبريدى مــا يطلــبه اتجهت أطماعهم إلى البريدى نفسه فشغبوا عليه طلباً للمال

١- البداية والنهاية لابن كثير ح١١ ص ٢٠٠ ، ٢٠١ (وينظر الكامل فى التاريخ ح٦ ص ٢٧٩ .

٢- الكامل فى التاريخ حـ ٦ ص ٢٧٩ ، ٢٨٠

واجـــتمعت كـــلمة الديـــلم والأتراك وكان على رأس الديلم " كورتكين " الديلمى وعلى رأس الأتراك " تكينك " التركى غلام بجكم واستطاع الجند أن يوحدوا كلمتهم ويجمعوا صفوفهم وتزداد بذلك قوتهم وأحس البريدى بذلـــك فهـــرب ومعه أهله وأصحابه إلى واسط ونهبت داره ودور قواده واســـتطاع " كورتكيـــن " أن يستولى على كل الأمور ببغداد بعد هرب البريدى عنها ودخل إلى المتقى فقلده إمارة الأمراء وخلع عليه "[١].

لم تدم إمرة الأمراء لكورتكين طويلا إذ أن بعض الأتراك البجكمية أطمعـــوا محمـــدا بن رائق فى العود إلى العراق وكان فيهم من القواد " "تـــوزون" و"خجخـــج" و"نوشتكين" و"صيغون " وقد قوى بهم ابن رائق فســـار من رائق قاصدا بغداد ولما وصل إلى الموصل تنحى عن طريقه ناصـــر الدولـــة بن حمدان فتراسلا واتفقا على أن يتصالحا وحمل ابن حمـــدان لابـــن رائق مائة ألف دينار وتابع ابن رائق مسيره إلى بغداد فخـــرج عـــنها " كورتكين " إلى "عكبرا" ووصل إليه ابن رائق فوقعت الحرب بينهم واتصلت عشرة أيام وانتهت هذه الحرب بانهزام " كورتكين " وأصـــحابه وقوى أمر ابن رائق وأخذ من استأمن إليه من الديلم فقتلهم عـــن آخـــرهم وكانوا نحو أربعمائة وخلع المتقى على ابن رائق وجعله أمير الأمراء"[٢].

لـــم تـــدم العلاقة طويلا بين ابن رائق و"توزون" ففى العام الثانى لتولى ابن رائق إمرة الأمراء شغب عليه الجند وفيهم " توزون " وغيره

١- المصدر السابق حـــ ٦ ص ٢٨٠ .

٢- المصدر السابق حـــ ٦ ص ٢٨١

مـــن القواد . ورحلوا إلى عبد الله البريدى بواسط فلما وصلوا إليه قوى بهــم جانــبه فاحـــتاج ابن رائق إلى مداراته فكاتب أبا عبد الله البريدى بالوزارة وأنفذ له الخلع ثم وردت الأخبار إلى بغداد بعزم البريدى على دخولهـــا فغضـــب ابـــن رائق وأزال اسم الوزارة عنه وأعاد أبا اسحق القراريطى ولعن بنى البريدى على المنابر بجانبى بغداد "[١].

عزم البريدى على دخول بغداد فسيّر أخاه أبا الحسين إلى بغداد فى جيـــش من الأتراك والديلم وتحصن ابن رائق بدار الخليفة ثم خرج مع المـــتقى لله لـــلقاء جيش البريدى عند نهر " ديالى " ووافاهم أبو الحسن الـــبريدى عـــند النهر واقتتل الجيشان وكانت الهزيمة للخليفة ومعه ابن رائـــق واستولى أصحاب البريدى على دار الخلافة وهرب المتقى وابنه الأميـــر أبـــو منصور ولحق بهما ابن رائق وقتل أصحاب البريدى من وجـــدوا فى دار الخليفة من الحاشية ونهبوها وكثر النهب فى بغداد ليلا ونهارا[٢]

لقد فسدت الحياة السياسية فسادا كبيرا فى عهد إمرة الأمراء وظلت الخلافـــات قائمـــة بيـــنهم كل يريد أن تكون له إمرة الأمراء واستمرت المعارك بينهم لا تنقطع والخليفة لا حول له ولا قوة يركن دائما إلى من يتمـــلك زمام الأمر فهو مع " كورتكين " طالما كان قويا ، فإذا ما تغلب ابـــن رائق وصار الأمر بيده كان الخليفة مع ابن رائق ، وعندما تغلب

١- المصدر السابق حـــ ٦ ص ٢٨٣ .

٢- المصدر السابق ، جـــ ٦ ، ص ٢٨٣ ، وينظر تاريخ الخلفاء ص ٣٩٤ ، وينظر كذلك تكملة تاريخ الطبرى ، ص ٣٣١

البريدى على الخليفة وابن رائق وهربا منه راسل الخليفة ناصر الدولة بن حمدان يستمده على البريديين ويستجيب ناصر الدولة لطلب الخليفة فيسيِّر أخاه سيف الدولة على بن عبد الله بن حمدان نجدة للخليفة فى جيش كثيف فيجد الخليفة وابن رائق قد انهزما ويخدم سيف الدولة المتقى خدمة جليلة بوقوفه إلى جانبه ويوافيهم أخوه ناصر الدولة على الجانب الشرقى لدجلة فيعبر إليه الأمير أبو منصور بن المتقى وابن رائق يسلّمان عليه فلما أرادوا الانصراف ركب ابن المتقى ومنع ناصر الدولة ابن رائق من الركوب وأمر أصحابه بقتله فقتلوه وألقوه فى دجلة وأرسل ابن حمدان إلى المتقى يقول : " إنه علم أن ابن رائق أراد أن يغتاله ففعل به ما فعل فردّ عليه المتقى ردا جميلا وأمر بالمسير إليه فسار ابن حمدان إلى المتقى فخلع عليه ولقَّبه " ناصر الدولة " وجعله أمير الأمراء وخلع على أخيه أبى الحسن على ولقبه " سيف الدولة "[١]

وهكذا تظهر فى أفق بغداد قوة جديدة سوف يكون لها خطرها ودورها البارز فى صد هجمات الروم عن بلاد الإسلام ، وفى محاربتهم والانتصار عليهم هذه القوة هى بنو "حمدان".

أساء البريديون السيرة بعد استيلائهم على بغداد ونفرت عنهم قلوب الناس والأجناد ولما قتل ابن رائق سارع الجند إلى الهرب من البريدى فهرب "خجخج" إلى المتقى لله وتحالف "توزون و"توشتكين" والأتراك على محاربة البريدى وغدر "توشتكين" بأصحابه وأعلم البريدى

١- الكامل فى التاريخ ، جـ ٦ ،ص ٢٨٤ (وينظر تكملة تاريخ الطبرى ص ٣٣٢ ، ٣٣٣)

الخـــبر وعـــلم تـــوزون غدر " توشتكين " فسار ومعه جملة وافرة من الأتـــراك نحـــو الموصل فقوى بهم ابن حمدان وعزم على الانحدار إلى بغـــداد لمحاربـــة البريدى واسترداد بغداد من يده وتجهز وانحدر ومعه المـــتقى إلى بغـــداد فـــلمّا قاربوهـــا هرب أبو الحسن منها إلى واسط ، واضطربت العامة ببغداد ونهب الناس بعضهم بعضا ودخل المتقى إليها ومعه بنو حمدان فى جيوش كثيرة"[١]

تـــرك البريدى بغداد واتجه نحو واسط ليعد العُدة للقاء بنى حمدان مـــرة أخرى فقد سيّر جيشه ثانية قاصدا بغداد والتقى جيشه بجيش بنى حمـــدان وعـــليه سيف الدولة وابن عمه أبو عبد الله الحسين بن سعيد – الـــتقى الجيشـــان – بالقرب من المدائن واقتتلوا وكان توزون وخجخج والأتراك مع ابن حمدان فانهزم سيف الدولة أول الأمر ورجع ومن معه إلى المدائـــن وبها ناصر الدولة فردّهم وأضاف إليهم من كان عنده من الجيش فعاودوا القتال فانهزم أبو الحسن البريدى وأسر جماعة من أعيان أصحابه وقتل جماعة وعاد أبو الحسن منهزما إلى واسط ولم يتبعه سيف الدولـــة وجنوده حتى استراحوا ثم انحدروا من موقع المعركة إلى واسط فرأوا البريديين قد انحدروا إلى البصرة فأقام سيف الدولة بواسط ومعه الجيش"[٢]

ويرى محمد بن عبد الملك الهمذانى صاحب تكملة تاريخ الطبرى أن قصيدة المتنبى والتى مطلعها :

١- الكامل فى التاريخ ، جـــ ٦ ، ص ٢٨٥ (وينظر تكملة تاريخ الطبرى ص ٣٣٣)

٢- الكامل فى التاريخ ، جـــ ٦ ، ص ٢٨٥ (وينظر تكملة تاريخ الطبرى ص ٣٣٣)

أَنَا مِنْكَ بينَ فَضَائِلٍ وَمَكَارِمِ وَمَن ارْتِيَاحِكَ فِى غَمَامٍ دَائِمِ

قيلت فى مدح سيف الدولة بعد أن هزم البريديين فى هذه المعركة واستقر بواسط .

وفى هذه القصيدة يقول المتنبى مخاطبا سيف الدولة بن حمدان :

أَنَا مِنْكَ بينَ فَضَائِلٍ ومكارِمِ ومِنَ ارْتِيَاحِكَ فى غَمَامٍ دَائِمِ
ومِنَ احتِقَارِك كُلَّ ما تَحْبُو بِهِ فِيمَا أُلَاحِظُهُ بِعَيْنَيْ حَالِمِ
إِنَّ الخليفَةَ لَمْ يُسَمِّكَ سَيْفَها حتَّى ابتلاكَ فكُنْتَ عينَ الصَّارِمِ
وإِذَا تَتَوَّجَ كُنْتَ دُرَّةَ تاجِهِ وإِذَا تَخَتَّمَ كنتَ فَصَّ الخَاتَمِ
وإِذا انْتَضَاكَ على العِدَى فى مَعْرَكٍ هَلَكُوا وضَاقَتْ كَفُّهُ بالقَائِمِ
أَبْدَى سَخَاؤُكَ عَجْزَ كُلِّ مُشَمِّرٍ فى وَصْفِهِ وأَضَاقَ ذَرْعَ الكَاتِمِ[1]

وهذه القصيدة وغيرها دليل على مدى المكانة التى تبوأها آل حمدان آنذاك تلك المكانة التى أعادت للعرب شيئا من هيبتهم التى ضاعت على أيدى الفرس مرة وعلى أيدى الأتراك مرة أخرى .

استقر سيف الدولة بواسط ومعه "توزون" و"خجخج" وغيرهما من الأتراك وسرعان ما ساءت العلاقة بين سيف الدولة وبين توزون وخجخج وذلك ليس بالشئ الغريب على الأتراك فهم دائما سيئوا الظن والنية ، وكان سبب سوء العلاقة بين سيف الدولة وبين هؤلاء قلة المال فى يد سيف الدولة وأخذ سيف الدولة يكاتب أخاه ناصر الدولة ليرسل

١- ديوان المتنبى ، جـ ٣ ، ص ٣٤٩ ، ٣٥٠

إليـــه الأموال فلم ينفذ إليه شيئا وازدادت الحالة سوءا حتى ثار الأتراك عـــليه فهـــرب قاصدا بغداد وبلغ الخبر ناصر الدولة فسار إلى الموصل ونهبت داره وثار الديلم والأتراك ودبّر الأمر بعده أبو إسحق القراريطى من غير تسمية بوزارة .

ولما هرب سيف الدولة من واسط وعاد الأتراك إلى معسكرهم دبّ الخـــلاف بين توزون وخجخج وتنازعا الإمارة ثم استقر الأمر على أن يكون توزون أميرا وأن يتولى خجخج أمر الجيش ولكن سرعان ما علم تـــوزون بتدبير خجخج للانتقال إلى البريدى فركب إليه فى جماعة من غـــلمانه وقبض عليه فحمله إلى واسط وسمله ودخل توزون بغداد فخلع عليه المتقى لله وجعله أميراً للأمراء"[١]

بعد تولى توزون إمرة الأمراء وقعت الوحشة بينه وبين المتقى إذ أرســـل تـــوزون وهو بواسط "ابن شيرزاد" إلى بغداد فى ثلاثمائة غلام فأقام ابن شيرزاد ببغداد يأمر وينهى ولا يراجع المتقى فى شئ فأرسل المتقى إلى ناصر الدولة بن حمدان يطلب منه إنفاذ جيش إليه ليصحبوه إلى الموصـــل فـــأنفذه مع ابن عمه أبى عبد الله بن الحسين بن سعيد بن حمـــدان ولمـــا سار المتقى من بغداد ظلم ابن شيرزاد الناس وعسفهم وصـــادرهم ووصـــل المتقى إلى ناصر الدولة فلقيه ناصر الدولة بنفسه وأكرمه وأصعد الخليفة إلى الموصل وأقام ناصر الدولة "بتكريت" وعلم تـــوزون بذلـــك فجهـــز جيشا وسار به إلى تكريت ووقعت الحرب بين تـــوزون وبنى حمدان بقيادة سيف الدولة وهزم سيف الدولة مرتين أمام

١- الكامل فى التاريخ ، جـ ٦ ، ص ٢٩٠ ، ٢٩١

توزون وعلى أثر الهزيمة الثانية ترك ناصر الدولة الموصل ومعه أخوه سـيف الدولـة والخليفة المتقى لله وانتهت الحروب بينهم بصلح تم بين ناصـر الدولة بن حمدان وتوزون وعقد الضمان على ناصر الدولة لما بيده من البلاد ثلاث سنين كل سنة بثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف درهم، وعاد توزون إلى بغداد وأقام المتقى عند بنى حمدان بالموصل ثم ساروا عنها إلى الرّقة فأقاموا بها " [١]

عاد توزون بعد صلحه مع بنى حمدان ليجد معز الدولة بن بويه قد اتفق مع البريديين ضده فنشبت الحرب بين توزون ومعز الدولة وظلت بضعة عشر يوما وانتهت بهزيمة ابن بويه"[٢]

انهـزم ابن بويه ولحق به من سلم من عسكره واستأمن كثير من الديـلم إلى تـوزون وعاد توزون بعد انتصاره على ابن بويه إلى بغداد وفى هـذه الأثـناء سـاءت العلاقة بين أبى عبد الله البريدى وأخيه أبى يوسف وأدت الخلافات بينهما إلى قتل أبى يوسف البريدى بأمر من أخيه أبى عـبد الله الذى توفى هو الآخر بعد مقتل أخيه بثمانية اشهر بحمى حادّة واستقر فى الأمر بعده أخوه أبو الحسين فأساء السيرة فى الأجناد[٣]

وهكـذا عاشـت الخلافـة الإسلامية فى تلك الآونة حياة سياسية مـتدهورة تسودها الحرب بين الأمراء كل منهم يرنو إلى منصب أمير

١- الكامل فى التاريخ ، جـ ٦ ، ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ (وينظر تكملة تاريخ الطبرى للهمذانى ص ٣٤١ ، ٣٤٢ ، وكذلك تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٣٩٥

٢- الكامل فى التاريخ ، جـ ٦ ، ص ٢٩٥ ، ٢٩٦

٣- المصدر السابق ، جـ ٦ ، ص ٢٩٦

الأمـــراء وكـــل منهم يبغى أن تكون له الغلبة ، وعمت البلاد والأقاليم الفوضــى وشـــملها الفساد بعد حروب متعددة منها ما كان بين الأتراك وبـــنى حمدان هذا من ناحية ، ومنها ما كان بين الأتراك وبين بنى بويه من ناحية ثانية ثم ما كان بين البريديين أنفسهم من ناحية ثالثة .

بدأ المتقى – وقد أحس من بنى حمدان تضجرا به وإيثارا لمفارقته – بـــدأ يراسل توزون طالبا منه العود إلى بغداد فأرسل إلى توزون كلا من الحسن بن هارون وأبا عبد الله بن أبى موسى الهاشمى طالبا الصلح معـــه فـــلقيهما تـــوزون وابن شيرزاد بنهاية الرغبة فيه والحرص عليه فاســـتوثقا مـــن توزون وحلفاه للمتقى لله وأحضرا لليمين خلقا كثيرا من القضـــاة والعـــدول والعباسيين والعلويين وغيرهم وحلف توزون للمتقى والوزير وكتبوا خطوطهم بذلك"[١]

يقـــول السيوطى : " ثم حضر الإخشيد إلى المتقى وهو بالرقة وقد بـــلغه مصالحة توزون فقال يا أمير المؤمنين أنا عبدك وابن عبدك وقد عرفت الأتراك وفجورهم وغدرهم فالله الله فى نفسك سر معى إلى مصر فـــهى لـــك وتأمن على نفسك فلم يقبل فرجع الإخشيد إلى بلاده وخرج المتقى من الرّقة إلى بغداد"[٢]

والدكـــتور أحمد مختار العبّادى يعلل عرض الإخشيد على الخليفة المـــتقى بالذهـــاب إلى مصـــر فيقـــول : " طلب الإخشيد من المتقى أن

١- الكامل فى التاريخ ، جـــ ٦ ص ٢٩٧

٢- تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٣٩٦ (وينظر كذلك تكملة تاريخ الطبرى للهمذانى ص ٣٤٧ وكذلك الكامل فى التاريخ جـــ ٦ ص ٣٠١)

يصحبه إلى مصر حيث يكون تحت حمايته ولكن الخليفة عز عليه آخر الأمر أن يترك عاصمته ومقر أسرته فرفض هذا العرض وعاد الإخشيد إلى الشـــام وعـــاد الخليفة إلى بغداد . ولا شك فى أن الإخشيد أراد من وراء نقل الخلافة العباسية إلى مصر أن يُقَوى دولته التى أسسها بمصر والشام وهكذا فشل مشروع نقل الخلافة إلى مصر للمرة الثانية وبقى هذا المشروع معطلا إلى أن حققه فيما بعد السلطان المملوكى الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩ هـــ"[١]

من هذا التحليل يتضح أن الإخشيد لم يكن يهدف من وراء عرضه إلا لغايـــة سياســـية حـــتى يقوى بالخليفة على سائر الأمراء وأصحاب الدويلات التى نشأت منفصلة عن الخلافة العباسية.

واستطاع توزون بيمين كاذبة حلفها لرسل المتقى – استطاع– أن يخـــدع الخـــليفة (المغلوب على أمره) وأن يقبض عليه ويسمل عينيه ويـــنهى خلافته على يديه ليؤكد من جديد أن الخلافة العباسية كانت ولا تـــزال رهيـــنة برضى الأتراك أو سخطهم ، يصف ابن الأثير ذلك كله فيقـــول : " فلما حلف توزون كتب الرسل إلى المتقى بذلك وكتب الناس إليـــه أيضـــا بمـــا شاهدوا من تأكيد اليمين فانحدر المتقى من الرقة فى الفـــرات إلى بغداد فلما وصل المتقى إلى "هيت" أقام بها وأنفذ من يجدد اليمين على توزون فعاد وحلف وسار عن بغداد ليلتقى مع المتقى فالتقى معه بالسنديّة فنزل توزون وقبّل الأرض وقال : " ها أنا قد وفيت بيمينى والطاعـــة لك ثم وكل به وبالوزير وبالجماعة وأنزلهم فى مضرب نفسه

١– فى تاريخ الدولة العباسية د . أحمد مختار العبادى ص ١٣٦

مع حرم المتقى ثم كحله فأذهب عينيه فلما سمله صاح وصاح من عنده من الحرم والخدم وارتجت الدنيا فأمر توزون بضرب الدبادب لئلا تظهر أصواتهم فخفيت أصواتهم وعمى المتقى لله وانحدر توزون من الغد إلى بغداد والجماعة فى قبضته "(١)

ويقول السيوطى عن المتقى : " وأدخل بغداد مسمول العينين وقد أخـذ منه الخاتم والبردة والقضيب وأحضر توزون عبد الله بن المكتفى وبايعـه بالخلافـة ولّقب المستكفى بالله ثم بايعه المتقى المسمول وأشهد على نفسه بالخلع ولما كحل قال القاهر :

صِرْتُ وإبراهيمُ شيْخَيْ عمىً	لابدَّ للشيخَيْنِ مِنْ مَصْدَرِ
مـــــــادام توْزُونُ له إِمرَةٌ	مُطاعَةً فالمِيلُ فِي المِجْمَرِ

ولم يحل الحول على توزون حتى مات وأما المتقى فإنه أخرج إلى جزيـرة مقابلة "للسندبة" فسجن بها فأقام فى السجن خمسا وعشرين سنة إلى أن مات فى شعبان سنة سبع وخمسين (يعنى وثلاثمائة)(٢)

ولى الخلافـة بعـد المـتقى المستكفى بالله أبو القاسم عبد الله بن المكـتفى بالله على بن المعتضد ، يقول ابن الأثير فى توليته الخلافة : " لمـا قـبض توزون علىَ المتقى لله أحضر المستكفى إليه فى "السندبة" وبايعه هو وعامة الناس " (٣)

١- الكامل فى التاريخ ، جـ ٦ ، ص ٣٠١

٢- تاريخ الخلفاء ص ٣٩٦

٣- الكامل فى التاريخ جـ ٦ ص ٣٠١

ويقول عنه الهمذاني : " ولى الخلافة وسنه يومئذ إحدى وأربعون سـنة وسـبعة أيام وكان فى سن المنصور يوم وُلى وكانت خلافته سنة وأربعـة أشـهر فقلد أبا الفرج محمد بن على "السرمزراى" الوزارة ولم يكـن إليه غير اسم الوزارة وأبو جعفر بن شيرزاد الناظر فى الأمور ، وخـلع عـلى توزون وطوّقه وسوّره ووضع على رأسه التاج المرصع بجواهر وجلس بين يدى المستكفى بالله على كرسى"[١]

وهكذا يبدو مدى نفوذ توزون التركى على الخلفاء العباسيين يعزل مـن يشاء ويولّى من يشاء ويخضع له كل خليفة يتولى الخلافة خضوع المسود لسيده يخطب وده ويطلب رضاه بكل ما يستطيع.

وفى السنة التى تولّى فيها المستكفى حدثت خلافات بين أبى الحسن الـبريدى وبين ابن أخيه فقدم إلى بغداد مستأمنا إلى توزون فأمنّه إلاّ أن ابـن أخيه أنفذ مالا كثيرا خدم به توزون وابن شيرزاد كاتبه فأنفذوا إليه الخـلع وأمّروه على عمله فلما علم أبو الحسين بذلك سعى فى أن يكتب لـتوزون ويقبض على ابن شيرزاد فعلم ابن شيرزاد بذلك فسعى به إلى أن قبض عليه وكان القضاة والفقهاء قد أفتوا بإحلال دمه فضربت رقبته فى دار الخليفة"[٢]

يقول الهمذاني : " فكان هذا خاتمة أمور الثلاثة (يقصد البريديين) وعقبى ما ارتكبوه من الظلم وأهله ومن البلاء كله "[٣]

١- تكملة تاريخ الطبرى ص ٣٤٩

٢- الكامل فى التاريخ جـ ٦ ص ٣١١

٣- تكملة تاريخ الطبرى ص ٣٥٠

وظلت الحروب القائمة بين الأمراء هى السمة المميزة لتلك الحقبة مـــن تاريخ الخلافة العباسية ، ففى السنة نفسها التى تولّى فيها المستكفى ســـار سيف الدولة بن حمدان إلى حلب فملكها واستولى عليها وكان مع المتقى لله بالرقة فلما عاد المتقى إلى بغداد وانصرف الإخشيد إلى الشام بـــقى " يـــأنس المؤنـــس " بحلب فقصده سيف الدولة فلما نازلها فارقها "يأنس" وسار إلى الإخشيد فملكها سيف الدولة .

ولما ملك سيف الدولة حلب سارت الروم إليها فخرج إليهم فقاتلهم بالقرب منها فظفر بهم وقتل منهم "[١]

لـــم يطـــل المقـــام بتوزون مع المستكفى فقد مات فى سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وهى السنة نفسها التى بدأت فيها خلافة المستكفى بالله، ولما مات توزون كان كاتبه ابن شيرزاد " بهيت " لتخليص أموالها فلما بـــلغه الخبر عزم على عقد الإمارة لناصر الدولة بن حمدان فاضطربت الأجناد وعقدوا الرياسة عليهم لابن شيرزاد فحضر وخرج عليه الأجناد جميعهـــم واجتمعوا وحلفوا له ووجه إلى المستكفى بالله ليحلف له فأجابه إلى ذلك وحلف له بحضرة القضاة والعدول ودخل إليه ابن شيرزاد وعاد مكرما يخاطب بأمير الأمراء"[٢]

وهكـــذا انقلـــبت الأمور رأسا على عقب وأصبح الخليفة هو الذى يحـــلف لأميـــر الأمراء ويُشهد على نفسه القضاة والعدول وإن دلّ ذلك عـــلى شـــئ فإنما يدل على مدى مهانة الخلافة والخلفاء ومدى سيطرة

١- الكامل فى التاريخ جـ ٦ ص ٣١٢ (وينظر تكملة تاريخ الطبرى ص ٣٥٠)

٢- المصدر السابق جـ ٦ ، ص ٣١٤

الأتـــراك وتحكمهم فى أمور الدولة فالآمر الناهى إنما هو أمير الأمراء ومـــا الخـــليفة العّباســـىّ إلا صورة باهتة ليس له من الخلافة إلا اسمها والعجيب أنهم قنعوا بذلك ورضيت به نفوسهم وغلبوا على أمرهم .

لـــم يهنأ ابن شيرزاد بالإمارة طويلا فقد ساءت العلاقة بينه وبين جماعـــة من قواده الذين استعملهم على البلاد فقد استعمل " ينال كوشة " عـــلى واسط " واستعمل " الفتح اللشكرى " على " تكريت " إلا أن " ينال كوشـــه " كـــاتب معـــز الدولة بن بويه واستقدمه وصار معه وأما الفتح اللشـــكرى فإنه سار إلى ناصر الدولة بالموصل وصار معه فأمّره على "تكـــريت " ولما كاتب " ينال كوشة " معز الدولة بن بويه وهو بالأهواز ودخل فى طاعته سار معز الدولة نحوه فاضطربت الناس ببغداد واختفى المســـتكفى بـــالله وابن شيرزاد وسار الأتراك إلى الموصل بعد استتار الخليفة وأمير الأمراء ثم ظهر الخليفة المستكفى بعد ذلك وعاد إلى بغداد إلى دار الخلافة وأظهر السرور بقدوم معز الدولة وأعلمه أنه إنما استتر مـــن الأتراك ليتفرقوا فيحصل الأمر لمعز الدولة بلا قتال ووصل معز الدولة إلى بغداد حادى عشر جمادى الأولى سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة فـــنزل "بـــباب الشماســـية" ودخل من الغد إلى الخليفة المستكفى وبايعه وحلف له المستكفى وخلع الخليفة على معز الدولة ولقبّه ذلك اليوم " معز الدولة " ولقب أخاه عليا " عماد الدولة " ولقب أخاه الحسن " ركن الدولة " وأمـــر أن تضـــرب ألقابهم وكناهم على الدنانير والدراهم ونزل معز

الدولــة بدار مؤنس ونزل أصحابه فى دور الناس فلحق الناس من ذلك شدة عظيمة وأقيم للمستكفى بالله كل يوم خمسة آلاف درهم لنفقاته"[١]

وبتــلقيب الخليفة المستكفى لبنى بويه بهذه الألقاب وبخلعه عليهم وأمــره أن تضــرب ألقابهم وكناهم على الدنانير والدراهم وبتولى معز الدولة بن بويه إمرة الأمراء أصبحت الأمور كلها بيد بنى بويه واستتب لهــم الأمر وحلوا محل الأتراك فى استبدادهم بكل شئ وسيطرتهم على كــل صغيرة وكبيرة فى الدولة وعاد إليهم مجد الفرس القديم ، يقول د . حســن إبراهيم : " إن نظام إمرة الأمراء الذى استحدثه الخليفة الراضى محاولــة منه لانقاذ الخلافة العباسية من احتقارها لم يجرّ على البلاد إلا الخــراب والدمــار فقد سارت البلاد من سيئ إلى أسوأ وأصبح السبيل مفــتوحا لدخــول بنى بويه بغداد واستبدادهم بالأمر دون الخليفة وأمير الأمراء"[٢]

بعــد أن استتب الأمر لمعز الدولة بن بويه عمل على خلع الخليفة المســتكفى لأنــه شــك فى نوايا المستكفى تجاهه ومما زاد فى شكه أن "عــلما" القهرمانة صنعت دعوة عظيمة حضرها جماعة من قواد الديلم والأتراك فاتهمها معز الدولة أنها فعلت ذلك لتأخذ عليهم البيعة للمستكفى ويزيــلوا معــز الدولة فحضر معز الدولة والناس عند الخليفة وحضر رســول صاحب خراسان ومعز الدولة جالس ثم حضر رجلان من نقباء

١- الكامل فى التاريخ جــ ٦ ص ٣١٤ (وينظر تكملة تاريخ الطبرى ص ٣٥٣ ، ٣٥٤ وكذلك تاريخ الخلفاء ص ٣٩٧ .

٢- تاريخ الإسلام السياسى د . حسن ابراهيم جــ ٣ ص ٣٥

الديــلم فتناولا يد المستكفى بالله فظن أنهما يريدان تقبيلهما فمدها إليهما فجذبــاه عــن ســريره وجعــلا عمامــته فى حلقه ونهض معز الدولة واضطرب الناس ونهبت الأموال وساق الديلمان المستكفى بالله ماشيا إلى دار معز الدولة فاعتقل بها ونهبت دار الخلافة حتى لم يبق بها شئ ولما بويــع المطيع لله سُلم إليه المستكفى فسمله وأعماه وبقى محبوسا إلى أن مات سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة "[١]

مــن هذه النهاية المؤلمة لخليفة المسلمين المستكفى بالله يتضح أن بنى بويه قد بدأوا يسلكون مع الخلفاء مسلك الأتراك تماما فإذا أحسُّوا من الخــليفة إعراضا عنهم دبروا له مكيدة لخلعه وقد كانت مكائدهم شبيهة بتــلك التى استخدمها الأتراك كثيرا مع الخلفاء وهى أن يجلس زعيمهم مع الخليفة ثم يأتى من يهوى على الخليفة بسيفه أو من يجذبه من ردائه ويقــوده إلى نهايته التى يراها سيده ، هكذا دونما تقدير أو احترام لهيبة الخلافة وقدسيتها التى كان من الواجب أن تتوفر لها .

وابــن الأثير يصور لنا مدى التدهور الذى بلغته الخلافة العباسية بعــد أن تــولى معز الدولة بن بويه إمرة الأمراء ، فيقول : " لما قبض على المستكفى بويع للمطيع لله[أ] بالخلافة يوم الخميس ثانى عشر جمادى الآخــرة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة ولقب المطيع لله وأحضر المستكفى عــنده فســلم عليه بالخلافة وأشهد على نفسه بالخلع وازداد أمر الخلافة

١- الكامل فى التاريخ جـ ٦ ، ص ٣١٥ (وينظر تكملة تاريخ الطبرى ص ٣٥٤ ، وكذلك تاريخ الخلفاء ص ٣٩٧)

أ – المطيع لله هو أبو القاسم الفضل بن المقتدر

إدبارا ولم يبق لهم من الأمر شئ البتة وقد كانوا يراجعون ويؤخذ أمرهم فيما يفعل والحرية قائمة بعض الشئ فلما كان أيام معز الدولة زال ذلك جميعه بحيث أن الخليفة لم يبق له وزير إنما كان له كاتب يدبر أقطاعه وإخراجاته لا غير وصارت الوزارة لمعز الدولة يستوزر لنفسه من يريد وكـــان من أعظم الأسباب فى ذلك أن الديلم كانوا يتشيعون ويغالون فى التشيُّع ويعتقدون أن العباسيين قد غصبوا الخلافة فأخذوها من مستحقيها فــلم يكن عندهم باعث دينى يحثهم على الطاعة حتى لقد بلغنى أن معز الدولـــة استشـــار جماعـــة من خواص أصحابه فى إخراج الخلافة من العباسيين والبيعة للمعز لدين الله العلوى أولغيره من العلويين فكلهم أشار عـــليه بذلك ماعدا بعض خواصه فإنه قال : " ليس هذا برأى فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتـــلوه مستحلين دمه ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لفعلوه فأعرض عن ذلـــك ، فهـــذا كان من أعظم الأسباب فى زوال أمرهم ونهبهم مع حب الدنيـــا وطـــلب التفرد بها وتسليم معز الدولة العراق بأسره ولم يبق بيد الخليفة منه شئ البتة إلا ما أقطعه معز الدولة مما يقوم ببعض حاجته"[١]

بعـــد ولايـــة معـــز الدولة بن بويه لإمرة الأمراء سار إليه ناصر الدولـــة بن حمدان من الموصل قاصدا العراق لمحاربته وكان قد انضم إلى ناصـــر الدولة بعض قواد معز الدولة بن بويه ولما علم معز الدولة بقـــدوم ناصر الدولة بن حمدان ووقوع الحرب بينه وبين أصحاب معز

١- الكامل فى التاريخ جـــ ٦ ، ص ٣١٥ ، ٣١٦

الدولة " بعكبرا " سار معز الدولة ومعه المطيع إلى " عكبرا " ولما خرج معــز الدولة عن بغداد لحق ابن شيرزاد بناصر الدولة وعاد إلى بغداد مــع عسكر لناصر الدولة فاستولوا عليها ودبّر ابن شيرزاد الأمور بها نيابــة عن ناصر الدولة وناصر الدولة يحارب معز الدولة . واستمرت الحــروب بيــنهما فترة طويلة نهب خلالها معز الدولة " تكريت " لأنها كانت لناصر الدولة وانتهت الحرب بينهما بأن استقر معز الدولة ببغداد وأقــام ناصــر الدولة بعكبرا ثم استقر الصلح بينهما بعد حروب دامت وكلفت البلاد ما لا تطيق"[١]

ويــتحدث السيوطى وهو يؤرخ لسنة أربع وثلاثين وثلاثمائة عما وقــع بين معز الدولة وناصر الدولة ابن حمدان وموقف الخليفة من ذلك فيقــول : " وفيها أى (فى هذه السنة) وقع بين معز الدولة وبين ناصر الدولــة بــن حمــدان فخرج لقتاله ومعه المطيع ثم رجع والمطيع معه كالأسير "[٢]

وفى ســنة أربع وثلاثين وثلاثمائة مات الإخشيد أبو بكر محمد بن طغــج صاحب ديار مصر وكان موته بدمشق وولى الأمر بعده ابنه أبو القاســم فاســتولى عــلى الأمور كافور الخادم الأسود – وهو من خدم الإخشــيد – وغلب أبا القاسم واستضعفه وتفرّد بالولاية وكان أبو القاسم صغيرا وكان كافور "أتابكة" فلهذا استضعفه وحكم عليه وسار كافور إلى

١- الكامل فى التاريخ ، جـ ٦ ص ٣١٦ ، ٣١٧ (وينظر تكملة تاريخ الطبرى ص ٣٥٦ ، ٣٥٧)

٢- تاريخ الخلفاء ص ٣٩٨

مصر فقصد سيف الدولة دمشق فملكها وأقام بها إلا أن كافورا عاد إلى دمشق فخرج عنها سيف الدولة سنة ست وثلاثين وثلاثمائة واستقر الأمر بيـــن الإخشيديين وبين سيف الدولة فعاد سيف الدولة إلى حلب وعاد أبو القاســـم إلى مصر وأقام كافور بدمشق قليلا وولّى عليها بدر الإخشيدى وعاد كافور إلى مصر "[١]

وهكـــذا كان التنافس قائما بين الأمراء الذين استطاعوا أن يكونوا وينشئوا دويلات لهم قامت واستتبت لها أنظمتها على مرأى ومسمع من الخـــليفة الذى لم يكن سوى صورة جامدة ليس له مع بنى أمية أمر ولا نـــهى ولا يمـــلك حق الموافقة أو الرفض فقد قامت لبنى بويه دولة فى العـــراق عاصمة الخلافة وقامت للإخشيديين دولة فى مصر وفى دمشق وقـــامت لبنى حمدان دولة فى حلب وظل معز الدولة بن بويه يعمل ما اســـتطاع عـــلى أن يضمن لبنى بويه التحكم الكامل فى الخلافة ، يقول السيوطى : " وفى سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة جدد معز الدولة الأيْمان بيـــنه وبين المطيع وأزال عنه التوكيل وأعاده إلى دار الخلافة وفى سنة ثمـــان وثلاثيـــن سأل معز الدولة أن يشرك معه فى الأمر أخاه على بن بويـــه عمـــاد الدولة ويكون من بعده فأجابه المطيع ثم لم ينشب أن مات عماد الدولة من عامه فأقام المطيع أخاه ركن الدولة والد عضد الدولة"[٢]

استطاع معز الدولة أن يفرض سلطانه على الخلافة وأن تكون له المـــنزلة الـــرفيعة والهيـــبة المفروضـــة حتى على الخليفة نفسه يحدثنا

١-الكامل فى التاريخ ، جـــ ٦ ص ٣١٨

٢- تاريخ الخلفاء ص ٣٩٩

السيوطى أنه عندما ماتت أخت معز الدولة سنة أربع وخمسين وثلاثمائة نزل المطيع إلى دار معز الدولة يعزيه"[١]

وظـــلت لمعز الدولة هذه المنزلة وتلك الهيبة حتى مات سنة ست وخمسين وثلاثمائة فأقيم ابنه " بختيار " مكانه فى السلطنة ولقبه المطيع " عز الدولة"[٢]

بعد موت معز الدولة بن بويه بسنة تحرك القرامطة ليملكوا دمشق ويمـــنعوا الناس من أداء فريضة الحج يقول السيوطى : " وفى سنة سبع وخمســـين وثلاثمائة ملك القرامطة دمشق ولم يحج أحد فيها لا من الشام ولا مـــن مصـــر وعـــزموا على قصد مصر ليملكوها فجاء العبيديون فأخذوهـــا وقـــامت دولة الرفض فى الأقاليم : المغرب ومصر والعراق وذلـــك أن كافورا الإخشيدى صاحب مصر لما مات اختل النظام وقلت الأموال على الجند فكتب جماعة إلى المعز يطلبون منه عسكرا ليسلموا إليـــه مصر فأرسل مولاه جوهرا القائد فى مائة ألف فارس فملكها ونزل مكـــان القاهرة اليوم واختطها وبنى دار الإمارة للمعز وقطع خطبة بنى العباس ولبث السواد وألبس الخطباء البياض وأمر أن يقال فى الخطبة : الـــلهم صلى على محمد المصطفى وعلى المرتضى وعلى فاطمة البتول وعـــلى الحســـن والحسين سبطى الرسول وصل على الأئمة آباء أمير المؤمنين المعز بالله"[٣]

١- المصدر السابق ص ٤٠١

٢- المصدر السابق ص ٤٠١ (وينظر تكملة تاريخ الطبرى ص ٤١٠)

٣- تاريخ الخلفاء ص ٤٠٢ (وينظر الكامل فى التاريخ جـــ ٧ ص ٣٠ ، ٣١)

ولمـــا استقر جوهر بمصر وثبَّت بها قدمه سيَّر عساكره إلى الشام بقصـــد دخـــول دمشق وكان بها أبو محمد الحسن بن عبد الله بن طغج فجـــرت بين جيشَىْ المعز لدين الله وجيشِ ابن طغج حروب كان الظفر فيها لجيوش المعز لدين الله بقيادة قائد يسمى "جعفر بن فلاح" واستطاع جعفر هذا أن يأسر ابن طغج وغيره من القواد ويسيرهم إلى جوهر الذى ســـيرهم بـــدوره إلى المعز بإفريقية واستطاع ابن فلاح أن يدخل دمشق واستقر له الأمر بها"[١]

وفى السنة ذاتها التى استقر فيها الأمر لجعفر بن فلاح بدمشق سنة ســـتين وثلاثمائـــة وصل القرامطة إلى دمشق فملكوها وقتلوا جعفرا بن فـــلاح وسبب ذلك كما يقول ابن الأثير : " أنهم لما بلغهم استيلاء جعفر بـــن فـــلاح على الشام أهمهم وأزعجهم وقلقوا لأنهم كان قد تقرر بينهم وبيـــن ابـــن طغج أن يحمل إليهم كل سنة ثلاثمائة ألف دينار فلما ملكها جعفـــر علموا أن المال بقوتهم فعزموا على قصد الشام وصاحبهم حينئذ الحسين بن أحمد بن بهرام القرمطى فأرسل إلى عز الدولة بختيار يطلب منه المساعدة بالسلاح والمال فأجابه إلى ذلك فساروا إلى دمشق فاستهان بهـــم جعفر بن فلاح ولم يحترز منهم فلم يشعر بهم حتى كبسوه بظاهر دمشـــق وقتلوه وأخذوا ماله وسلاحه ودوابه وملكوا دمشق وأمَّنوا أهلها وساروا إلى الرملة واستولوا على جميع ما بينهما وملكوا الرملة وساروا إلى مصـــر قاصـــدين فتحها وأجتمع معهم خلق كثير من العرب والجند والإخشـــيدية والكافورية واجتمعوا واجتمع عساكر جوهر وخرجوا إليهم

١- الكامل فى التاريخ جـ ٧ ص ٣١ ، ٣٢

فاقتتــلوا غير مرة وانتهت هذه المعارك بهزيمة القرامطة فاضطروا إلى الــرحيل والعودة إلى الشام وللحسين بن بهرام مقدم القرامطة شعر فمنه فى المغاربة أصحاب المعز لدين الله :

زَعمتْ رِجَالُ الغَرْبِ أنىِّ هِبتُهمُ ... فَــــدمِى إذًا ما بيْنَهُم مَطْلولُ

يا مِصْرُ إنْ لَمْ أسقِ أرضَكِ منْ دَمٍ ... يَرْوِى ثَراكِ فلا سَقَانى النيِّــلُ[١]

وهكذا ظلت الحروب قائمة بين الأمراء وخليفة المسلمين لا حول لــه ولا قوة تقطعت أوصال خلافته وكثرت الدويلات فى جنباتها وعاث الخـــارجون على الدين فسادا وذاق الناس أهوال هذه الحروب المستمرة هـــنا وهـــناك والخليفة محجور عليه خاضع "لبختيار " كما كان خاضعا لأبيه من قبله.

يقــول الســيوطى : " وفى ســنة اثنتين وستين وثلاثمائة صادر الســلطان "بختيار" "المطيع" فقال المطيع : أنا ليس لى غير الخطبة فإن أحببـــتم اعتزلت فشدّد عليه حتى باع قماشه وحمل أربعمائة ألف درهم وشاع فى الألسنة أن الخليفة صودر"[٢]

وبذلك يظهر مدى تحكم البويهيين فى كل أمر من أمور الخلافة إذ أصبحت الأمور بيدهم وليس لخليفة المسلمين إلى الخطبة يقول د . أحمد مخـــتار العبادى : " وهكذا حل البويهيون الفرس محل الأتراك فى حكم

١- الكامل فى التاريخ جـــ ٧ ص ٤٢ ، ٤٣ (وينظر البداية والنهاية لابن كثير جـــ ١١، ص ٢٦٩)

٢- تاريخ الخلفاء ، ص ٤٠٢

فـــارس والعراق ولم تكسب الخلافة العباسية شيئا من وراء ذلك بل ظل الخـــلفاء كما كانوا من قبل فى عهد النفوذ التركى خلفاء بلا نفوذ وليس لهـــم مـــن الســـلطة إلا بعض مظاهرها الدينية كالخطبة والسكة وتعيين القضاة وخطباء المساجد بينما استأثر البويهيون بالحكم واتخذوا لقب ملك أو "شاهنشـــاه" بـــدلا من لقب أمير الأمراء الذى كان سائدا فى العصر التركى السابق"[١]

وظـــل الخليفة المطيع على هذه الحال مع "بختيار" حتى سنة ثلاث وســـتين وثلاثمائـــة فـــفى هذه السنة أصيب بمرض الفالج وثقل لسانه وتعـــذرت الحركة عليه وهو يستر ذلك فانكشف حاله "لسبكتكين" فدعاه إلى أن يخلع نفسه من الخلافة ويسلمها إلى ولده الطائع ففعل ذلك وأشهد على نفسه بالخلع وبويع للطائع لله بالخلافة واستقر أمره"[٢]

يقـــول السيوطى : " قال الذهبى : وكان المطيع وابنه مستضعفين مع بنى بويه ولم يزل أمر الخلفاء فى ضعف إلى أن استخلف المقتفى لله فانصـــلح أمـــر الخلافة قليلا . وكان دست الخلافة لبنى عبيد الرافضة بمصر أميز وكلمتهم أنفذ ومملكتهم تناطح مملكة العباسيين فى وقتها"[٣]

ظـــل "بخـــتيار" سـلطانا على العراق له الكلمة وإليه يرجع النهى وتحـــت إمرته الديلم والأتراك يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه حتى دبت الفتنة بين الأتراك والديلم بالأهواز فعمت العراق جميعه واشتدت واجتهد

١- فى تاريخ الدولة العباسية د . أحمد مختار العبادى ص ١٥٠

٢- الكامل فى التاريخ جـــ ٧ ص ٥٣ (وينظر تاريخ الخلفاء ص ٤٠٤)

٣- تاريخ الخلفاء ص ٤٠٤ ، ٤٠٥

"بختيار" فى تسكين هذه الفتنة فلم يمكنه ذلك فاستشار الديلم فى ذلك فأشاروا عليه بقبض رؤساء الأتراك لتصفوا له البلاد فاعتقل بعضا من قادة الأتراك وأطلق الديلم فى الأتراك فنهبوا أموالهم ودوابهم واستولى "بختيار" على أقطاع "سبكتكين" فأخذه وأمر فنودى فى البصرة بإباحة دم الأتراك وازداد الأمر سوءا بين "سبكتكين" و"بختيار" ووقف الأتراك مع قائدهم "سبكتكين" وأخذ بختيار يكتب إلى عمه "ركن الدولة" ولابن عمه "عضد الدولة" يسألهما النجدة وكتب كذلك إلى أبى "تغلب بن حمدان" يطلب أن يساعده بنفسه مقابل أن يسقط عنه المال الذى عليه فجهز ركن الدولة عسكرا مع وزيره أبى الفتح بن العميد وكتب إلى ابنه "عضد الدولة" يأمره بالمسير إلى ابن عمه والاجتماع مع ابن العميد فأما "عضد الدولة" فإنه وعد بالمسير وانتظر بختيار الدوائر طمعا فى ملك العراق وأما "أبو تغلب بن حمدان" فإنه أجاب إلى المسارعة وأنفذ أخاه "أبا عبد الله الحسين بن ناصر الدولة بن حمدان" إلى "تكريت" فى عسكر وانتظر انحدار الأتراك عن بغداد فان ظفروا " ببختيار" دخل بغداد مالكا لها وانحدر الأتراك عن بغداد إلى "واسط" مع "سبكتكين" وأخذوا معهم الخليفة الطائع لله والمطيع أيضا وهو مخلوع فلما وصلوا إلى دير عاقول توفى بها المطيع لله ومرض "سبكتكين" فمات بها أيضا وقدّم الأتراك عليهم " الفتكين " وهو من أكابر قوادهم وموالى معز الدولة وفرح "بختيار" بموت "سبكتكين" وظن أن أمر الأتراك ينحل وينتشر بموته فلما رأى انتظام أمورهم ساءه ذلك وسار الأتراك قاصدين "بختيار" وهو "بواسط" فنزلوا قريبا منها وصاروا يقاتلونه نحو خمسين يوما وظلت الحرب بينهم متصلة والظفر للأتراك فى كل ذلك وحصروا "بختيار"

واشــتد عليه الحصار وأحدقوا به وتابع إنفاذ الرسل إلى "عضد الدولة" بالحث والإسراع وكتب إليه :

فإنْ كنت مأكولا فكن أنت اكلى   وإلا فأدركنى ولما أمزق

فــلما رأى عضــد الدولة ذلك وأن الأمر قد بلغ "ببختيار" ما كان يرجوه سار نحو العراق نجدة له فى الظاهر وباطنه بضدّ ذلك "[١]

مــن هذا العرض الموجز للفتنة التى دبت بين الأتراك "وبختيار" نتــبين إلى أى مدى كان أقرب الناس إلى "بختيار" طامعا فى ملكه وهو ابن عمه "عضد الدولة" كذلك كان "أبو تغلب بن حمدان" طامعا فى ملك العراق أيضا فهما يظهران "لبختيار" المساعدة بينما يضمران فى أنفسهما غير ذلك وإن كان "بختيار" يعلم ذلك منهما والدليل على علمه بما يخفيه عضد الدولة قوله له فى البيت السابق :

فإنْ كنتُ مأكولا فكن أنت آكلى

ولكــن مــاذا عســاه أن يفعل وقد أحدقت به المصائب وألمت به النكبات وجمع الأتراك صفوفهم ضده ووحّدوا كلمتهم فى مواجهته وشقّوا عليه عصا الطاعة .

وتوالت الأحداث بعد ذلك يقول السيوطى : " وفى سنة أربع وستين وثلاثمائــة قــدم عضد الدولة بغداد لنصرة "عز الدولة" على "سبكتكين" فأعجبــته بغــداد ومــلكها فعمل عليها واستمال الجند فشغبوا على "عز الدولة" فأغلق بابه وكتب "عضد الدولة" عن "الطائع" إلى الآفاق باستقرار

١- الكامل فى التاريخ جـ ٧ ص ٥٢ : ٥٧

الأمـــر "لعضـــد الدولـــة" فوقع بين "الطائع" وبين "عضد الدولة" فقطعت الخطبة "للطائع" بسبب ذلك ببغداد وغيرها"[١]

ويقـــو ل محمـــد بن عبد الملك الهمذانى : " وأنفذ "عضد الدولة" ونـــادى ببغداد بالتسكين لأهلها والعفو عن جناتها ونزل "بباب الشماسية" عند دخوله ، فلما وصل خبرهم من "تكريت" بتشتت الأتراك نزل "عضد الدولة" بدار "سبكتكين" ونزل عز الدولة داره وهى دار "المتقى لله" وقال ابن الحجاج يستعطف "عضد الدولة" لأهل بغداد :

يَأيـــــــــُّهَا الملكُ الرءوفُ المُنْعِمُ ارحَمْ فمثلُكَ مَنْ يَرِقُّ وَيَرْحَمُ

مَوْلاىَ وصفُكَ كانَ يَعظُم عِنْدنـــا فالآنَ أنتَ أجلُّ منهُ وأعْظَمُ

بَغْـــــــــدادُ كانَتْ جنةً مسكونةً فيمَا مَضَى فالآن فَهِيَ جَهَنَّمُ

وراســـل عضـــد الدولة "الطائع لله" بأبى محمد بن معروف حتى اســـتعاده ودخـــل إلى بغداد وخرج عضد الدولة فتلقاه وقبّل البساط ويد الطـــائع وطرح له كرسى بين يديه فجلس عليه . وحمل إلى الطائع مالا وثيابا وطيبا وخطب له يوم الجمعة عاشر رجب بعد أن قطعت الخطبة له من عاشر جمادى الأولى ولم يخطب إلى هذه الغاية لأحد"[٢]

ولما سمع "ركن الدولة" أبو الحسن بن بويه بما كان من ابنه "عضد الدولة" مع ابن عمه بختيار أحزنه ذلك وأصيب بمرض شديد وظهر عند الخاص والعام غضبه على ابنه فخاف "عضد الدولة" أن يموت أبوه وهو

١- تاريخ الخلفاء ص ٤٠٦

٢- تكملة تاريخ الطبرى ص ٤٣٧ ، ٤٣٨

عـــلى حال غضبه فيختل ملكه وتزول طاعته فأطلق "بختيار" وعاد من بغداد وأرسل إلى أبى الفتح بن العميد" وزير والده يطلب منه أن يتوصل مع أبيه وأن يحضره عنده وأن يعهد إليه بالملك بعده فسعى أبو الفتح فى ذلـــك فأجابه إليه "ركن الدولة" وسار من "الرىّ" إلى "أصبهان" فوصلها ســـنة خمـــس وستين وثلاثمائة وأحضر ولده "عضد الدولة" من فارس وجمـــع عنده أيضا سائر أولاده "بأصبهان" وعهد "ركن الدولة" إلى ولده بالمـــلك وجعل لولده فخر الدولة أبى الحسن على "همذان" وأعمال الجبل ولولـــده مؤيـــد الدولة "أصبهان" وأعمالها وجعلهما فى هذه البلاد بحكم أخيهمـــا "عضد الدولة" ، وخلع "عضد الدولة" على سائر الناس وأوصى ركـــن الدولـــة أولاده بالاتفاق وترك الاختلاف وخلع عليهم ثم سار عن "أصبهان" نحو الرّى إلى أن توفى"(١)

وهكذا استطاع "عضد الدولة" بحنكته ودهائه أن يكتسب رضى أبيه قبل موته حتى ضمن لنفسه ملك البلاد بعد أبيه ثم بدأت أطماعه فى ملك بغـــداد تتحرك من جديد دون خشية من أحد ، يقول السيوطى : " وفى سنة سبع وستين وثلاثمائة التقى "عز الدولة" وعضد الدولة فظفر عضد الدولـــة وأخـــذ عز الدولة أسيرا وقتله بعد ذلك وخلع الطائع على عضد الدولـــة خـــلع السلطنة وتوجه بتاج مجوهر وسوّرة وقلّده سيفا وعقد له لواءين بيده أحدهما مفضض على رسم الأمراء والآخر مذهب على رسم ولاة العهـــود ولم يعقد هذا اللواء الثانى لغيره قبله وكتب له عهدا وقرئ بحضـــرته ولـــم يبق أحد إلا تعجّب ولم تجر العادة بذلك وإنما كان يدفع

١-الكامل فى التاريخ جـــ ٧ ص ٨٠ (وينظر تاريخ الخلفاء ص ٤٠٦)

العهـد إلى الولاة بحضرة أمير المؤمنين فإذا أخذه قال أمير المؤمنين : هذا عهدى إليك فاعمل به وفى سنة ثمان وستين أمر "الطائع" أن تضرب الدبـادب على باب عضد الدولة فى وقت الصبح والمغرب والعشاء وأن يخطـب له عـلى منابر الحضرة ، قال ابن الجوزى : وهذان أمران لم يكونا من قبله ولا أطلقا لولاة العهود"(١)

كـان "عضد الدولة" داهية ذا ذكاء وحنكة واستطاع بذكائه ودهائه أن يسـيطر على الخليفة الطائع وأن يستميله إليه حتى استطاع وتمكّن من فرض سيطرته على الخلافة وأصبح الخليفة خاتما فى إصبعه ، يقول السـيوطى عـن دهاء "عضد الدولة" وذكائه ومعاملته للخليفة "الطائع": وجـلس الطـائع على السرير وحوله مائة بالسيوف والزينة وبين يديه مصـحف عـثمان وعـلى كتفه البردة وبيده القضيب وهو متقلد بسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم وضربت ستارة بعثها عضد الدولة وسأل أن تكون حجابا للطائع حتى لا تقع عليه عين أحد من الجنود قبله ودخل الأتـراك والديـلم وليس مع أحد منهم حديد ووقف الأشراف وأصحاب المراتب من الجانبين ثم أذن "لعضد الدولة" فدخل ثم رفعت الستارة وقبّل عضد الدولة الأرض فارتاع " زياد القائد " لذلك وقال لعضد الدولة ؛ ما هـذا أيهـا المـلك؟ أهذا هو الله؟ فالتفت إليه وقال : هذا خليفة الله فى الأرض .

ثـم اسـتمر يمشـى ويقبّل الأرض سبع مرات فالتفت الطائع إلى "خالص" الخادم وقال : استدنه فصعد "عضد الدولة" فقبل الأرض مرتين

١-تاريخ الخلفاء ص ٤٠٧

فقال له : ادن إليّ فدنا وقبّل رجله وثنى الطائع يمينه عليه وأمره فجلس عـــلى الكرسى بعد أن كرر عليه اجلس وهو يستعفى فقال له : أقسمت عليك لتجلسن فقبّل الكرسى وجلس فقال له الطائع : قد رأيت أن أفوّض إليـــك مـــا وكـــل الله إلى مـــن أمور الرعية فى شرق الأرض وغربها وتدبيـــرها فى جميـــع جهاتها سوى خاصتى وأسبابى فتول ذلك فقال : يعيننى الله على طاعة مولانا أمير المؤمنين وخدمته ثم أفاض عليه الخلع وانصرف"[١]

ثـــم يكمـــل السيوطى حديثه متعجبا فيقول : " قلت انظر إلى هذا الأمر وهو الخليفة المستضعف الذى لم تضعف الخلافة فى زمن أحد ما ضـــعفت فى زمنه ولا قوى أمر سلطان ما قوى أمر "عضد الدولة" وقد صـــار الأمر فى زماننا إلى أن الخليفة يأتى السلطان يهنئه برأس الشهر فأكـــثر مـــا يقع من السلطان فى حقه أن ينزل عن مرتبته ويجلسا معا خـــارج المرتبة ثم يقوم الخليفة يذهب كأحد الناس ويجلس السلطان فى دســـت مملكته ولقد حدثت أن السلطان الأشرف "برسباى" لما سافر إلى "آمـــد" لقتال العدو وصحب الخليفة معه كان الخليفة راكبا أمامه يحجبه والهيـــبة والعظمـــة للســـلطان والخـــليفة كآحاد الأمراء الذين فى خدمة السلطان .

١- المصـــدر الســـابق ص ٤٠٨ (ويـــنظر كذلك تجارب الأمم لمسكويه نشره أمدروز القاهرة سنة ١٩١٤ ، جـــ ٢ ص ٤١٧

ثـم يقول السيوطى عن الطائع وعضد الدولة : " وفى سنة سبعين وثلاثمائة خرج من "همذان" عضد الدولة وقدم "بغداد" فتلقّاه "الطائع" ولم تجر عادة بخروج الخلفاء لتلقى أحد"[١]

والحـرص على المصلحة السياسية هو الذى دفع "عضد الدولة أنْ ينهج ذلك النهج وأن يسير تلك السيرة مع الخليفة العباسى وأن يخضع له ذلـك الخضـوع بالرغم من اختلاف البويهيين مع العباسيين فى النحلة فالخلافة العباسية خلافة سنية بينما البويهيون شيعة إلا أن سياسة "عضد الدولـة" كانت سياسة واقعية تتمشى مع مصالحها قبل كل شئ ويصور "الصّـاحب بن عبّاد" هذه السياسة المرنة للبويهيين بقوله : " والأشراف العـلوية "بقزوين" بينهم وبين سائر الطوائف شحناء لا تسقط جمرتها ، ولا تنجـلى عمرتها ، وقد كتبت فى ذلك كتابا أرجوه يجمع على الألفة ويحرس من الفرقة ، وينظم على ترك المنازعة ، والجنوح إلى الموادعة فـإن المهادنة تجمل بين الملّضتين فكيف بين النّحلتين والله نسأل توفيقا لأنفسنا ولهم"[٢]

استطاع عضد الدولة البويهى بعد أن استولى على العراق وملكها – استطاع أن يستولى على ملك "بنى حمدان" "بالموصل" بعد أن هزم "أبا تغلب بن حمدان" و"بختيار" ، واستطاع كذلك أن يفتح "ميافارقين" و"آمد" وغيـرهما من ديار "بكر" وأن يفرض نفوذه على ديار "مضر" بعد أن

١- تاريخ الخلفاء ص ٤٠٨ ، ٤٠٩

٢- رسائل الصاحب بن عباد ، نشر عبد الوهاب عزّام وشوقى ضيف القاهرة سنة١٩٤٧ م ، ص ٩١

فـتحها وكانت تحت إمرة "أبى تغلب بن حمدان" أيضا ولما فرغ "عضد الدولـة" مـن "أبى تغلب بن حمدان" وغيره حاول أن يصلح بينه وبين أخويـه "فخر الدولة" و"مؤيد الدولة" لأنه كان قد علم أن فخر الدولة أخاه كـان قـد اتفـق مع ابن عمهما "بختيار" ضد عضد الدولة فأخذ "عضد الدولة" يراسل أخويه فخر الدولة ومؤيد الدولة وقابوس بن وشمكير فأما رسالته إلى أخيه مؤيد الدولة فإنه يشكره فيها على طاعته وموافقته فإنه كـان مطيعـا غير مخالف وأما رسالته إلى فخر الدولة فإنه يعاتبه فيها ويسـتميله ويذكر له ما يلزمه به الحجة وأما رسالته إلى "قابوس" فيشير عـليه بحفـظ العهـود التى بينهما فأجاب "فخر الدولة" جواب المناظر المـناوئ ونسى كبر السن وسعة المال وعهد أبيه وأما "قابوس" فأجاب جواب المراقب فلما عاد الرسول برز "عضد الدولة" من بغداد على عزم المسـير إلى الجبل حيث أخوه "فخر الدولة" واستطاع "عضد الدولة" أن يفـرق عـن أخيـه عسكره فانحل أمر فخر الدولة وخرج هاربا لاجئا بقابوس بن وشمكير مستجيرا به فأجاره وأمّنه وملك عضد الدولة ما كان بيـد أخيه فخر الدولة " همذان والرى " ومابينهما من البلاد وسلمها إلى أخيه مؤيد الدولة وجعله خليفته ونائبه فى تلك البلاد"[١]

وظـل "عضد الدولة" يفتح البلاد واحدة تلو الأخرى ويضمها إلى ملكه فملك قلعة سندة وهى بنواحى الجبل أيضا وهى من قلاع "أبى عبد الله المرىّ"[٢]

١- الكامل فى التاريخ جـ ٧ ، ص ١٠١ ، ١٠٢

٢- المصدر السابق جـ ٧ ، ص ١٠٥

ثـم استولى على بلاد "جرجان" وأجلى عنها صاحبها "قابوس بن وشـمكير" جزاءً له لأنه أجار أخاه "فخر الدولة" ولم يوافق على تسليمه إياه"[١]

وهكـذا دانت "لعضد الدولة" بلاد "فارس" و"العراق" واستطاع أن يفرض نفوذه فى مملكته الواسعة الشاسعة حتى اشتدت عليه العلة فمات سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة فولّى "الطائع" مكانة ابنه "صمصام الدولة" ولّقبه "شمس الملة " وخلع عليه سبع خلع وتوجه وعقد له لواء ين "[٢].

وعـن عضد الدولة يحدثنا د. أحمد مختار العبادى فيقول : " على الـرغم من أن العصر البويهى كان مليئاً بالمنازعات والحروب الأهلية الـتى قـامت بيـن أبناء هؤلاء الإخوه البويهيين الثلاثة حول الميراث والسلطة إلاً أنه قد برز من بينهم شخصيات قوية لامعة ساهمت فى تقديم وازدهـار بـلاد العـراق وفارس التى خضعت لحكمهم ومن أهم هذه الشخصيات شخصية "عضد الدولة" بن الحسن بن بويه (٣٣٨ – ٣٧٢) الذى بلغت الدولة البويهية فى عهده أوج عظمتها فلقد نجح هذا الملك فى الظهور على إخوانه وأبناء عمومته وتوحيد فارس والعراق تحت نفوذه . كذلـك حرص على توثيق علاقته بالخليفة العباسى "الطائع" فتزوج ابنته كمـا تزوج الخليفة ابنته طمعاً فى أن تنجب منه ولداً يرث الخلافة من

١- المصدر السابق جـ ٧ ، ص ١٠٨

٢- تاريخ الخلفاء ص ٤٠٩ (وينظر الكامل فى التاريخ ح٧ ص ١١٣)

بعــده وفى الوقت نفسه حرص عضد الدولة على توثيق علاقته بالخليفة الفاطمى العزيز بالله فى مصر."[١]

ويقــول عــنه ابن الأثير :" كان عاقلاً فاضلاً حسن السياسة كثير الإصــابة شديد الهيبة بعيد الهمة ثاقب الرأى محباً للفضائل وأهلها باذلاً فى مواضع العطاء مانعاً فى أماكن الحزم ناظراً فى عواقب الأمور"[٢]

مات "عضد الدولة" وولى السلطة مكانه ابنه "صمصام الدولة" كما مَرَّ بنا وكانت العلاقة بين "صمصام الدولة" و"شرف الدولة" ابنى "عضد الدولــة" ســيئة ولــم يكن بينهما وفاق فلما مات عضد الدولة وعلم ابنه شــرف الدولــة بذلك وكان "بكرمان" سار مجداً إلى "فارس" فملكها فلما ســمع صمصــام الدولــة بما كان من أخيه سيّر له جيشاً التقى "بظاهر قــرقوب" بجيــش لشرف الدولة واقتتلوا فانهزم عسكر صمصام الدولة وكانت الواقعة فى سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة "[٣].

وفى السنة ذاتها توفى مؤيد الدولة بن "ركن الدولة" "بجرجان" ولم يعهــد بالملك لأحد من بعده وجلس صمصام الدولة للعزاء فأتاه "الطائع" معزياً وتشاور أكابر الدولة فيمن يقوم مقام "مؤيد الدولة" فأشار "الصاحب بــن عبّاد " بإعادة "فخر الدولة" إلى مملكته إذ هو كبير البيت ومالك تلك الــبلاد قــبل مؤيــد الدولة ولما فيه من آيات الإمارة والملك فكتب إليه

١- فى تاريخ الدولة العباسية د. أحمد مختار العبادى ص ١٥٣ .

٢- الكامل فى التاريخ ح٧ ص ١١٣

٣- المصدر السابق ح ٧ ص ١١٥

واســتدعى وسيرت الخلع من الخليفة إلى فخر الدولة والعهد واتفق فخر الدولة وصمصام الدولة وصارا يداً واحدة"(١)

ســار شــرف الدولــة بن عضد الدولة من فارس يطلب الأهواز وأرســل إلى أخيه أبى الحسن وهو بها يُطيّب نفسه ويعده الإحسان وأن يُقــره على ما بيده من الأعمال وأعلمه أن مقصده العراق فلم يُصْغ أبو الحســن إلى قوــله وعــزم على منعه وتجهز لذلك إلاّ أن شرف الدولة اســتطاع أن يصــل إلى "أرجان" فتسلل أجناد أبى الحسن لينضموا إلى شرف الدولة فهرب أبو الحسن إلى عمه فخر الدولة فبلغ "أصبهان" وأقام بها وأما شرف الدولة فإنه سار إلى "الأهواز" وملكها وأرسل إلى البصرة فمــلكها وقــبض على أخيه أبى طاهر وبلغ الخبر إلى صمصام الدولة فراســله فى الصلح فاستقر الأمر على أن يخطب لشرف الدولة بالعراق قــبل صمصام الدولة ويكون صمصام الدولة نائباً عنه ويطلق أخاه بهاء الدولة أبا نصر ويُسيِّره إليه وصلح الحال واستقام .

وخطــب لشــرف الدولة بالعراق وسيرت إليه الخلع والألقاب من الطــائع لله وألقــت إليــه البلاد مقاليدها "كواسط" وغيرها وكاتبه القواد بالطاعة فعاد عن الصلح وعزم على قصد بغداد والاستيلاء على الملك ولم يحلف لأخيه وفى سنة ست وسبعين وثلاثمائة استطاع شرف الدولة دخول بغداد والقبض على أخيه صمصام الدولة"(٢)

١- المصدر السابق حــ ٧ ص ١١٧ ، ١١٨ .

٢- المصدر السابق حــ ٧ ص ١٢٧ - ١٣٠

وفى ســنة تســع وسبعين اعتل شرف الدولة واشتدت عليه علته وأشار عليه خادمه بقتل أخيه صمصام الدولة وكان شرف الدولة يعرض عن كلامه فلما اشتدت علته خوَّفه خادمه خطر صمصام الدولة وقال له: الدولة معه على خطر فإن لم تقتله فاسمله فأرسل إليه من يسمله ولكنه مــات قبل أن يسمل أخوه فاستشير أبو القاسم العلاء بن الحسن فى سمله فأشار بذلك فسمل فكان يقول : ما أعمانى إلاَّ العلاء لأنه أمضى فى حكم سلطان قد مات"[١]

مات شرف الدولة وجلس أخوه بهاء الدولة فى المملكة وقعد للعزاء وركــب الطائع لله أبو أمير المؤمنين إلى العزاء فتلقاه بهاء الدولة وقَبَّل الأرض بين يديه وانحدر الطائع لله إلى داره وخلع على بهاء الدولة خلع السلطنة"[٢]

اشتغل بنو بويه بقتال بعضهم بعضاً بعد موت عضد الدولة وظلت الحروب قائمة لا تنطفئ نارها وخليفة المسلمين لا يدرى من أمر خلافته شيئاً سوى أنه يقلد السلطنه من تكون له الغلبة ويخلع عليه وظلت أحوال الخلافــة ســائرة على هذا النمط حتى دارت الأيام دورتها على الطائع ليــلقى مصيره ويواجه نهايته التى حددها له بنو بويه . ففى سنة إحدى وثمانين قبض بهاء الدولة بن بويه على الطائع (خليفة المسلمين) وكان ســبب ذلــك كمــا يقول ابن الأثير :" أن الأمير بهاء الدولة قلَّت عنده الأموال فكثر شغب الجند عليه فقبض على وزيره "سابور" فلم يغن عنه

١- المصدر السابق حـــ ٧ ص ١٣٨ .

٢- المصدر السابق حـــ ٧ ص ١٣٨ (وتنظر تاريخ الخلفاء ص ٤٠٩).

ذلــك شيئاً . وكان أبو الحسن بن المعلم قد غلب على بهاء الدولة وحكم فى مملكــته فحسن له القبض على الطائع وأطمعه فى ماله وهوَّن عليه ذلــك وسهَّله فأقدم عليه بهاء الدولة وأرسل إلى الطائع وسأله الإذن فى الحضور فى خدمته ليجدد العهد به فأذن له فى ذلك وجلس له كما جرت العــادة فدخل بهاء الدولة ومعه جمع كثير فلما دخل قبل الأرض وأجلس عــلى كرسى فدخل بعض الديلم كأنه يريد يقبل يد الخليفة فجذبه فأنزله عــن سريره والخليفة يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون وهو يستغيث ولا يلتفت إليه وأخذ ما فى دار الخليفة من الذخائر فمشوا به فى الحال ونهب الناس بعضهم بعضاً وكان من جملتهم "الشريف الرضى" فبادر بالخروج فسلم وقال أبياتاً من جملتها :

مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ ربُّ المُلْكِ مُبْتَسِمًا ... إِلَيَّ أَدنــوهُ فِى الــنَّجْوَى ويُدْنِينِى
أمسَــيْتُ أَرْحَمُ مَنْ قَدْ كُنتُ أَغْبِطُهُ ... لَقَــدْ تَقَــارَبَ بينَ العــزِّ وَالْهُونِ
ومَــنْظرٍ كَــانَ بالسرَّاءِ يُضْحِكُنى ... يَــا قُرْبَ ما عَادَ بالضَّرَّاءِ يُبْكِينِى
هَيْهَــاتَ أغْــتَرُّ بِالسُلْطانِ ثَانِيَــةً ... قَــدْ ضَلَّ ولاجُ أبوابِ السَّلاطِينِ[١]

ولما حمل "الطائع" إلى دار "بهاء الدولة" أشهد عليه بالخلع وحمل إلى "القــادر بــالله" لمــا ولى الخلافة فبقى عنده إلى أن مات سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة "[٢]

١- القصيدة فى ديوان الشريف الرضى ح٢ ص ٤٤٤ وما بعدها

٢- الكامل فى التاريخ ح٢ ص ١٤٧ ، ١٤٨ (وينظر تاريخ الخلفاء ص ٤١٠ ، ٤١١.)

ومـــا مشـــهد خـــلع "لطـــائع" عـــن خلافته إلاّ تكرار لمشهد خلع "المستكفى" وكما يقول أستاذنا الدكتور / يسرى سلامة . إذ جاءه بعض الديــلم مــتظاهرين بتقبيل يده ثم جذبوه وأنزلوه عن سريره وهو جالس وسط وجوه قومه وأشراف بغداد "[١].

ومـــا هـــذه الصورة البشعة للاستخفاف بالخلفاء إلاّ تكرار لصور عديـــدة رسمتها أيدى الأتراك وابتكرتها عقولهم وكان الخلفاء ضحاياها المغلوبين على أمرهم .

ولمـــا قـــبض على "الطائع" ذكر "بهاء الدولة" من يصلح للخلافة فاتفقوا على "القادر بالله" وهو أبو العباس احمد بن إسحق بن المقتدر بن المعتضد."[٢]

وواضـــح أن الخـــليفة المخلوع قد خلع بين الفرس البويهيين وأن الخليفة الذى اختير قد جئ به بيد البويهيين أيضاً مثلما كان يفعل الأتراك تماماً مع الخلفاء العباسيين يقول الأستاذ احمد امين :" وجاء "القادر بالله" بعد "الطائع" فظل سلطان بنى بويه على الخلافة كما كان . قال الذهبى : "فى ســـنة ولايـــته عقـــد مجلس عظيم حلف فيه "القادر" و"بهاء الدولة" الـــبويهى كل منهما لصاحبه بالوفاء وقلده "القادر" ما وراء بابه مما تقام

١- النقد الاجتماعى فى آثار أبى العلاء المعرى د. يسرى سلامة ص ٦٣.

٢- الكامل فى التاريخ جـــ ٧ ص ١٤٨ .

فيــه الدعــوة[١] ويكمــل الأستاذ / أحمد أمين قائلا من كل هذا نرى أن الــبويهيين مــن الفرس سلكوا مع الخلفاء ما سلكه الأتراك من قبلهم بل زادوا عــليه أحيانــا ولكن أكبر التبعة تقع على الترك فإنهم هم البادئون بانتهاك حرمة الخلافة فلم يكن من اليسير بعد إعادة مالها من جلال[٢]

ولى القــادر الخلافة وكان خيِّراً ناسكاً عابداً يقول عنه السيوطى : "قــال الخطيب : وكان القادر من الستر والديانة والسيادة وإدامة التهجد بالــليل وكثرة البر والصدقات وحسن الطريقة على صفة اشتهرت عنه وعرف به كل أحد مع حسن المذهب وصحة الاعتقاد تفقه على العلامة "أبى بشــر الهــروى" الشــافعى وقد صنف كتابا فى الأصول ذكر فيه فضــائل الصحابة على ترتيب مذهب أصحاب الحديث وأورد فى كتابه فضائل عمر بن عبد العزيز وإكفار المعتزلة والقائلين بخلق القرآن وكان ذلك الكتاب يقرأ فى كل جمعه فى حلقة أصحاب الحديث بجامع المهدى ويحضره الناس وترجمه بن الصلاح فى طبقات الشافعية.[٣]

ظل الحال فى عهد "القادر بالله" كما كان فى عهد سلفه "الطائع لله"، للــبويهيين الأمر والنهى والاستبداد بكل أمور الخلافة كبيرها وصغيرها وظــل الخليفة معهم صورة مطابقة لسابقيه من الخلفاء وظلت الحروب قائمــة بين الديلم والأتراك من جهة وبين الديلم بعضهم بعضا من جهة

١- ويضيف هلال الصابى :" بل زاد إلى ألقابه فى خطبة الجمعة قوام الدين وصفى أمير المؤمــنين "(بــنظر ذيل تجارب الأمم لأبى الحسن اسحاق إبراهيم الكاتب المعروف بهلال الصابى) ح٣ ص ٤٢٠ .

٢- ظهر الإسْلام لأحمد أمين ح١ ص ٥٤

٣- تاريخ الخلفاء ص ٤١٢

أخــرى واستطاع العزيز صاحب مصر أن يمد نفوذه ليصل إلى الشام ، يقول السُيوطى ،: وذكر الذهبى أن العزيز صاحب مصر مات سنة ست وثمانين (وثلاثمائة) وفتحت له - زيادة على آبائه - "حمص" و"حماة" و"حلب" و"خطب" له "بالموصل" و"باليمن" وضرب اسمه فيها على السكة والأعلام وقام بالأمر بعده ابنه منصور ولُقِب " الحاكم بأمر الله"[١]

وينتهى القرن الرابع الهجرى وعلى كرسى الخلافة العباسية "القادر بــالله" وليس له من الخلافة إلاَّ اسمها وعلى كرسى السلطنة "بهاء الدولة بن بويه" وهو الآمر الناهى بيده كل شئ.

وهكــذا كــتب للخلافة العباسية أن يأفل نجمها خلال القرن الرابع الهجرى كله وأن تضيع هيبتها وتداس حرمتها وقدسيتها وأن يختفى اسم الخـــليفة عـــند الناس وعند الشعراء بينما تتردد على ألسنة شعراء ذلك القـــرن أســـماء شخصـــيات استطاعت أن تملك المجد وأن تتربع على عرش السلطة بل استطاعت أن تفرض نفسها على الشعوب آنذاك .

امـــتلأت دواويـــن شعراء القرن الرابع بمدائح للأمراء لا للخلفاء فـــتردد اســـم "ســـيف الدولة الحمدانى" على ألسنة شعراء القرن الرابع الهجـــرى وفى مقدمـــتهم أبو الطيب المتنبى الذى خصه بقصائد عديدة عـــرفت بالســـيفيات كذلك مدحه ابن عمه أبو فراس الحمدانى بقصائده الشهيرة .

١- المصدر السابق ص ٤١٣

كمـــا لمـــع "كافور الإخشيدى" كذلك فى مدائح أبى الطيب المتنبى ولمـــع اســـم "عضـــد الدولة البويهى" فى مدائح كثيرة مدحه بها المتنبى وغيـــره وكأن هذه الشخصيات كانت هى خلفاء الدولة العباسية لا مجرد أمراء وولاة للخلافة .

وظهـــر من الشعراء فى القرن الرابع "مهيار الديلمى" الذى ينتمى إلى الفـــرس وظهـــرت فى شعره النزعة الشعوبية والميل إلى عنصره الفارســـى وتمجيده ولم يكن ذلك إلا نتيجة طبيعية لازدياد نفوذ البويهيين وطغيـــانهم عـــلى الحياة العامة وسيطرتهم على كل كبير منها وصغير وديـــوان مهيـــار يمتلئ فخرا بالعنصر الفارسى يقول مهيار على سبيل المثال مفتخراً:

أعْجَـبَتْ بى بَيْـنَ نادِى قَوْمِها	أمُّ سَـعْدٍ فمَضَـتْ تَسْألُ بِى
سَـرَّها مَـا عَـلِمتْ مِنْ خُلُقِى	فَـأرَادَتْ عِـلْمَهَا ما حَسَبى
لا تَخَـالِى نَسَـبًا يَخْفِضُـنِى	أنَـا مَنْ يُرْضِيكِ عِنْدَ النَّسَبَ
قَـوْمِىَ اسْتَوْلَوْا عَلَى الدَّهْرِ فَتًى	ومَشَـوْا فَوْقَ رُءُوسِ الحِقَب
عَمَّمُـوا بالشَّـمْسِ هَـامَاتِهِمُ	وبَـنَوْا أبيَـاتِهِمْ بالشُّـهُب
وأبِى "كِسْـرَى" عَـلَى إيوانِهِ	أيْـنَ فى النَّاسِ أبٌ مِثْلُ أبِى
سَـوْرَةُ المُـلْكِ القُدامَى وعَلَى	شَـرَفِ الإسْـلَامِ لِى وَالْأدَبِ
قَـدْ قَبَسْـتُ المجدَ مِنْ خَيرِ أبٍ	وَقَبَسْـتُ الدِّينَ مِنْ خَيْرِ نَبِى

وَضَـمَّمتُ الفخْـرَ مِنْ أطْرَافِهِ   سُؤْدَدَ الفُرْسِ ودِينَ العَرَبِ[١]

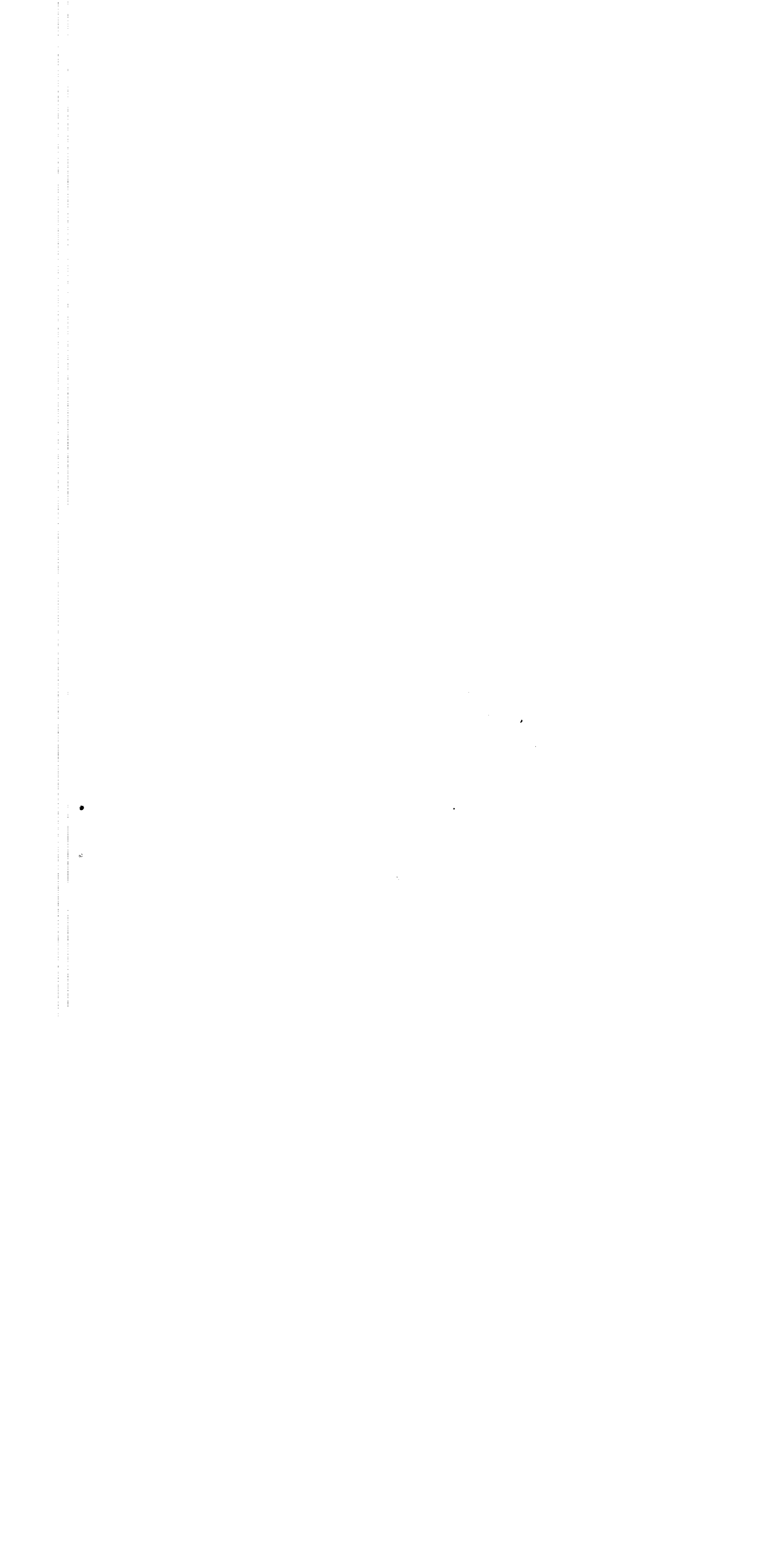
وهكذا يبدو التعصب العنصرى واضحاً فى شعر مهيار الديلمى . يقول د. يسرى سلامة :" ويعبر شعر مهيار عن تعصب المسلمين الذين انحدروا من أصول غير عربية إلى نسبهم فهم يعتزون بالدين الإسلامى ويرون فخر الانتساب إليه لا يدانيه فخر ولكنهم يفخرون بكسرى وبمجده القديـم وبسـيادتهم التى ذهبت بالسيف العربى وقوة العرب ولذلك فهم يـتخذون الإسلام ديناً والفارسية دولة ويذكرون للعرب دورهم فى محو سـؤددهم الغابـر فيتحسرون على ذلك وما إن أتاحت لهم الأيام فرصة إذلال العـرب حتى أمعنوا فى إذلالهم وكانوا يرون فى الخليفة العباسى رمـزاً لذلـك الجـنس الذى محا سيادتهم الغابرة بالرغم من أن الدولة العباسـية قامت على أكتاف الفرس وهيأت لهم احتلال أرقى المناصب الإدارية والعسكرية إلاَّ أن نكبة البرامكة وغيرها كانت تؤرق بال الفرس وتجعـلهم يـنظرون بريبة إلى تفضيل الخلفاء لهم فى مناصب الوزارة والجيش"[٢]

هـذه بعـض ملامـح الحياة السياسية قبيل القرن الرابع الهجرى وخلالـه ويبدوا فيها الفساد واضحاً وهيبة الخلافة ضائعة واستبداد غير العـرب بالأمر ظاهراً وخضوع الخلفاء وخنوعهم ماثلاً للعين ممَّا أدى

١-ديوان مهيار الديلمى مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٤٤هـ / ١٩٢٥م الطبعة الأولى حـ١ ص٦٤ .

٢- النقد الاجتماعى فى آثار أبى العلاء المعرى د. يسرى سلامة ص ٦٥

إلى انتشار الفوضى والظلم والاستبداد وضياع الحقوق نتيجة لذلك الفساد السياســي ونتيجة لاستمرار الحروب الدائرة بين الأجناس المختلفة من "عرب" "وديلم" و"ترك" إلى غير ذلك .



المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

١- اتجاهـــات الشـــعر العربى فى القرن الثانى الهجرى د. محمد مصطفى هدارة دار المعارف ١٩٦٣.

٢- الامـــتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى لجة التأليف والترجمة والنشر صـــححة وضبطه أحمد أمين وأحمد الزين منشورات المكتبة العصرية بيروت صيدا.

٣- البداية والنهاية لابى الفداء الحافظ بن كثير ، ت ٧٧٤هـــ ، الطبعة الثانية ١٩٧٧ ، مكتبة المعارف بيروت .

٤- تـــاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى الأول د. إبراهيم أبو الخشب الهيئة المصرية العامة للكتاب فرع الاسكندرية.

٥- تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى الثانى ، د . إبراهيم على أبو الخشب الهيئة المصرية العامة للكتاب ، فرع الاسكندرية.

٦- تـــاريخ الإســـلام السياســـى والدينى والثقافى والاجتماعى ، د . حسن ابراهيم ، الطبعة السابعة ، ط٣ القاهرة ، ١٩٦٥.

٧- تـــاريخ الخـــلفاء للإمـــام الحـــافظ جـــلال الدين عبد الرحمن بن بكر الســـيوطى، ت٩١١هـــ - المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، دار مصر للطباعة - الطبعة الرابعة ١٣٨٩هـــ / ١٩٦٩ م.

٨- تاريخ الرسل والأمم والملوك لمحمد بن جرير الطبرى ت، ٣١٠ هـــ ، الطبعة الرابعة، دار المعارف تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، جـــ .

٩- تجارب الأمم والملوك لمسكوية نشرة أمدروز - القاهرة ١٩١٤/١٩١٥ ج١.

١٠- تكملة تاريخ الطبرى لمحمد بن عبد الملك الهمذانى الملحق بذيول تاريخ الطبرى ، دار المعارف ، الطبعة الثانية .

١١- الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى آدم متز نقله إلى العربية محمد عبد الهادى أبو زيده مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٦ م / ١٩٤٧ م الطبعة الثانية.

١٢- حضارة الدولة العباسية د . أحمد محمد رمضان – الجهاز المركزى للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.

١٣- ديوان أبى الطيب المتنبى بشرح العكبرى المسمى بالتبيان فى شرح الديوان ضبط وتصحيح مصطفى السقا ، إبراهيم الابيارى عبد الحفيظ شلبى ، دار المعرفة بيروت.

١٤- ديوان أبى العلاء المعرى (شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء) أو منتخبات اللزوميات ، جمع خالد خطاب ، طبع على الحطاب بالاسكندرية .

١٥- ديوان مهيار الديلمى مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٤٤هـ / ١٩٢٥م الطبعة الأولى.

١٦- رسائل الصاحب بن عباد ، نشر عبد الوهاب عزّام وشوقى ضيف القاهرة سنة ١٩٤٧م.

١٧- شروح سقط الزند لأبى العلاء المعرى الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة القسم الثالث ١٣٨٣هـ / ١٩٦٤ م .

١٨- ظهر الإسلام لأحمد أمين مكتبة النهضة المصرية ، ط الطبعة السادسة.

١٩- العصر العباسى الأول د. شوقى ضيف دار المعارف بمصر الطبعة الخامسة.

٢٠- الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية لابن طباطبا المعروف بابن الطقطقى، المطبعة الرحمانية بمصر .

٢١- الفصول والغايات فى تمجيد الله والمواعظ لأبى العلاء المعرى ضبطه وفسـر غريـبه محمـود حسن زناتى مراجعة لجنة إحياء التراث العربى فى دار الآفاق الجديدة منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت.

٢٢- فقـه السـنة للسـيد سابق دار الفكر بيروت طبعة اولى ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م المجلد الثالث.

٢٣- فى تاريخ الدولة العباسية ، د . أحمد مختار العبادى ، مؤسسة الثقافة الجامعية بالاسكندرية.

٢٤- الكامل فى التاريخ لابن الأثير دار الكتاب العربى بيروت.

٢٥- المتنبى لمحمود محمد شاكر ، مطبعة المدنى بالقاهرة ١٩٧٦م ، السفر الأول.

٢٦- متن البخارى بحاشية السندى طبع مطبعة إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى وشركاه.

٢٧- مختصـر تفسير ابن كثير اختصارا وتحقيق محمد على الصابونى درا القرآن الكريم بيروت الطبعة السابعة المجلد الثانى.

٢٨- الـنقد الاجتماعى فى آثار أبى العلاء المعرى ، د . يسرى سلامة دار المعارف بمصر ، ١٩٧١ .

رقم ايداع
٢٠٠١/٥٣٣٠